
ليونيد أندرييف
ترجمة نوفل نيوف
يهوذا الاسخريوطي
رواية
Bibliotheca Alexandrina
0161129

يهوذا الأسخريوطي

ليونيد أندرييف

ترجمة

نوفل نيوف

يهوذا الأسخريوطي

رواية

دار ابن رشد للطباعة والنشر

الطبعة الاولى

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

يهوذا الاسخريوطي

أخطروا المسيح مرات كثيرة أن يهوذا الاسخريوطي انسان سيء الصيت جدا ، ويجب الحذر منه . بعض التلاميذ الذين ترددوا على يهوذا كانوا يعرفونه جيدا ، وسمع الاخرون عنه كثيرا من اقوال الناس ، ولم يكن احد يستطيع أن يقول عنه كلمة طيبة . ولئن ذمه الخيرون قائلين ان يهوذا طماع يحب المال ، غادر ، ميال الى التصنع والكذب ، فان الحمقى أيضا كانوا ينعتونه بأقسى الكلمات اذا ما سئلوا عنه . كانوا يقولون وهم يبصقون : « انه يثير الفتنة بيننا على الدوام . ان في ذهنه شيئا . وهو يتسلل الى البيوت بهدوء العقرب ، ويخرج منها بصخب . ان للصوص اصدقاء وللناهبين رفاقا ، وللكذابين زوجات يقولون لهم الحقيقة ، أما يهوذا فيضحك من اللصوص كما يضحك من الشرفاء ، علما بأنه يسرق بمهارة ، وهو بمظهره أقبح من سكان اليهودية كافة . « كلا ، انه ليس منا هذا الامغر ★ يهوذا الاسخريوطي » . كان الحمقى يقولون هذا فيتعجب منه الناس الطيبون الذين لم يكونوا يرون فرقا شاسعا بينه وبين بقية أهالي اليهودية الفاسدين .

كانوا يتابعون قائلين ان يهوذا قد ترك زوجته منذ زمن بعيد ، وهي تعيش شقية بائسة جائعة ، عبثا تحاول أن تعتصر خبزا لتقيم قوتها من تلك الاحجار الثلاث التي تتكون منها بلدة يهوذا .

★ الامغر : ذو الوجه الابيض والاحمر .

وهو منذ سنوات كثيرة يضرب في الارض ويجول بين الناس من غير ما هدف ، حتى انه وصل الى البحر والى البحر الاخر الاكثر بعدا ، وهو أينما حل يكذب ، يتصنع ، وبعينه اللصوصية يحدق متبصرا بشيء ما ، ثم ينسحب فجأة على حين غرة مخلفا وراءه المكروهات والفتن • انه فضولي ، ماكر وشرير كشيطان أعور • لم يكن لـه أطفال ، وهذا يعني مرة أخرى أن يهوذا انسان سيء ، ولا يريد له الاله نسـلا •

لم يلاحظ أحد من التلاميذ متى ظهر للمرة الاولى بقرب المسيح هذا اليهودي الامغر الدميم ، ولكنـه منـذ زمـن طويل يسير في طريقهم من غير تردد ، يتدخل في أحاديثهم ، يقدم خدمات صغيرة، يبتسم ويداهن • تارة يبدو مألوفا جدا • وهو يخدع البصر المرهق ، وتارة أخرى ينطلق فجأة أمام السمـع يغيظهـم كشـيء لا مثيل لدمـامتـه ، كـذاب كريـه • حينهـا كانـوا يطردونـه بكلمـات قاسـية فينقطع عنهـم لفتـر ةقصـيرة في مكـان مـا قـرب الطـريق ، ثم يظهر خلسـة من جديد ، خدوما ، متملقا وماكـرا كشيطان أعور • وكان بعض التلاميذ لا يخامرهم الشك في أن رغبته بالتقرب من يسوع تنطوي على نية خفيـة وعلـى حساب شرير وغادر •

ولكن يسوع لم يسمع لنصائحهم ، لم يمس صوتهم النبوئي سمعه • بروح التناقض النوراني ، تلك التي كانت تجذبه بشكل جارف الى البؤساء والمنبوذين قبل يسوع يهوذا باصرار وضمه الى حلقة المختارين • جزع التلاميذ وتذمروا بتحفظ ، أما هو فجلس ووجهه الى الشمس الغاربة ، وبتأمل راح ينصت ربما اليهم ، وربما الى شيء اخر • عشرة أيام والريح ساكنة ، واستقر الهواء العذب على حاله لا يهب ولا يتبدل ، نبيها رهيفا • خيل اليه وكأنه احتفظ في عمقه الشفاف بكل ما طاب للناس والحيوانات والطيـور في تلك الايام من صخب وغناء ـ الدموع والبكاء والاغنية المرحة ، والصلاة واللعنات ، أما هو فقد جعلته هذه الاصوات الزجاجية الجامدة ثقيلا ، تعبا ، قلقا ، مشبعا بحياة لا مرئية • وغابت الشمس مرة أخرى • وتدحرجت ثقيلة نحو الاسفل ككرة ملتهبة تحرق السماء •

وكل ما كان على الارض مصوبا اليها ـ وجه المسيح الاسمر ، جدران البيوت وأوراق الاشجار ـ كله عكس باذعان ذلك الضياء البعيد والمغرق في التفكير • لم يعد الجدار الابيض الآن أبيض ، والمدينة الحمراء لم تعد بيضاء على الجبل الاحمر •

وها قد جاء يهوذا •

جاء محنيا بانحناء كبير ، مقوسا ظهره ، مادا رأسه الدميمه القِرمزية بحذر وهلع ، تماما كما وصفه عارفوه • كان نحيلا حسن الطول كالمسيح تقريبا الذي كان يحدودب قليلا لانه اعتاد التفكير وهو يمشي ويبدو ، لذلك ، أقصر ، كما كان قويا بما فيه الكفاية ، على ما يبدو ، ولكنه لسبب ما كان يتظاهر بالهزال والمرض ، وكان صوته متبدلا : تارة رجوليا وقويا ، وطورا زاعقا ، كصوت امرأة عجوز تشتم زوجها ، حزينا ، مائعا وكريها على السمع ، وكثيرا ما كانت هناك رغبة في اقتلاع كلمات يهوذا من الاذنين كأنها شظايا خشب شائكة مهترئة • لم يكن الشعر الاحمر القصير يخفي شكل جمجمته الغريب والشاذ ، لكأنها مشطورة من الخلف بضربتي سيف ثم أعيد تركيبها ، كانت مشطورة الى أربعة أجزاء بوضوح ، وكانت تبعث على الشك ، بل وعلى الاضطراب ، فلا يمكن أن يكون وراء هذه الجمجمة هدوء أو رضى ، وراء هذه الجمجمة تسمع دائما جلبة المعارك الدموية الضارية • كان مزدوجا أيضا وجه يهوذا • أحد جزئيه ، ذو العين السوداء المحدقة بحدة ،كان حيا نشطا ، تتكور بيسر ضمن تجاعيد متعرجة كثيرة العدد • أما الجزء الاخر فخلو من التجاعيد ، ملس كأنه ميت ،مستو وجامد ، ومع أنه كان مساويا في حجمه للاول ، الا أنه بدا ضخما لاتساع العين العوراء المفتوحة • هذه العين المغشاة بعكر ضارب الى البياض والتي لا تطبق لا في الليل ولا في النهار كانت تستقبل الضوء والظلام بدرجة واحدة ، ولكن كان المرء لا يثق بعماها الكامل ، ربما لان رفيقة حية وماكرة كانت الى جانبها • حين كان يهوذا في نوبة التهيب أو الاضطراب يطبق عينه الحية ويهز رأسه ، كانت تلك تهتز مع حركات الرأس وتنظر بصمت • كانوا يدركون بجلاء ، وهم ينظرون الى الاسخريوطي ، أن هذا الانسان عاجز عن فعل الخير ، أما يسوع فقد أدناه منه ، بل وأجلسه الى جانبه ، أجلس يهوذا الى جانبه •

بقرف تزحزح مبتعدا قليلا يوحنا التلميذ المحبوب ، وأطرق جميع الباقين باستياء لانهم يحبون معلمهم • أما يهوذا فجلس وراح يحرك رأسه يمنة ويسرة ويشكو بصوت ناعم من أمراضه ومن ألم في صدره يعذبه في الليالي ، ومن أنه حين يصعد الجبل يشعر باختناق ، أما حين يقف على شفا هاوية فانه يعاني من دوار في الرأس وبالكاد يمتنع عن رغبة عميقة بالقاء نفسه الى الاسفل • وبوقاحة كان يختلق أشياء كثيرة ، كأنه لا يفهم أن الامراض لا تصيب الانسان مصادفة وانما تولد نتيجة لمخالفة أعماله وصايا الخالق • كان يفرك صدره بكفه العريضة ، بل ويسعل بصورة كريهة هذا اليهوذا الاسخريوطي حين يرين الصمت وتطرق الانظار •

كان يوحنا بهدوء ، من غير أن يلتفت الى المعلم ، يسأل صديقه بطرس سمعان :

ـ أما سئمت هذا الكذب ؟ انني لم أعد قادرا على احتماله ، وسوف أرحل من هنا •

نظر بطرس الى يسوع فالتقت نظراتهما ، ونهض مسرعا •

قال لصديقه : انتظر !

نظر الى يسوع مرة أخرى بسرعة ، كحجر انفصل عن جبل ،

واندفع الى يهوذا الاسخريوطي وقال له بصوت عال وبترحاب واسع وجلي :

ـ ها أنت أيضا معنا ، يا يهوذا •

وربت بحنان على ظهره المقوس ، ولم يلتفت الى المعلم ، لكنه شعر بنظرته المصوبة اليه ، فأردف بصوته العالي الذي أزاح جميع الاعتراضات ، كالماء يزيح الهواء :

ـ لا بأس أن لك هذا الوجه القبيح ، فشباكنا تصطاد وجوها اقبح ، ولكنها تكون الاطيب مذاقا عند الاكل • وليس لنا ، صيادي سيدنا ، أن نرمي بالصيد لمجرد أن السمكة شائكة وعوراء •• لقد

شاهدت مرة في الطيرا أخطبوطا بين أيدي صيادي الاسماك هناك فكدت أعدو من الخوف • أما هم فضحكوا مني ، أنا الصياد من طبريا ، وأعطوني اياه لآكله ، وقد طلبت المزيد لانه كان لذيذا جدا • هل تذكر ، أيها المعلم ، فقد حدثتك بذلك ، وضحكت أنت ايضا • وأنت يا يهوذا شبيه نصف واحد منك بالاخطبوط •

وقهقه عاليا فرحا بطرفته • حين كان بطرس يقول شيئا ، كانت كلماته ترن بقوة وكأنه يدقها بالمسامير • حين كان بطرس يتحرك أو يقوم بفعل شيء كان يحدث ضجيجا مسموعا الى البعيد فتستجيب له اكثر الاشياء صمما : أرض المنزل الحجرية كانت ترن تحت قدميه ، الابواب كانت ترتجف وتنغلق ، والهواء بالذات كان يضج ويهز مخيفا • في شقوق الجبال كان صوته يوقظ صدى غاضبا ، أما في الصباحات على البحيرة ، حين كانوا يصطادون السمك فكان يتدحرج دائريا في الماء الناعسة اللامعة ويرغم أول شعاعات الشمس الوجلة على الابتسام • ولعلهم أحبوا بطرس لقاء هذا : كان الظل الليلي ما يزال راقدا على جميع الوجوه الاخرى ، بينما كانت رأسه الضخمة وصدره العاري العريض ويداه المرميتان بحرية ، تتقد في هالة الشروق •

كانت كلمات بطرس ، التي يباركها المعلم على ما يبدو ، تبدد حالة تعب المجتمعين • غير أن بعضا ممن ترددوا على البحر أيضا وشاهدوا الاخطبوط كانت تربكهم طلعته المريعة التي لصقها بطرس بهذه الدرجة من السذاجة بالتلميذ الجديد • تذكروا العينين الضخمتين وعشرات القرون الشعرية الجشعة والاطمئنان المفتعل — وفجأة يعانق ، يغمر ، يسحق ويمتص ، من غير أن ترف عيناه الضخمتان مرة واحدة • ما هذا ؟ غير أن يسوع يصمت ، يسوع الاخطبوط بحرارة — وواحدا اثر آخر تقدم التلاميذ الحيارى من يهوذا يبتسم وينظر من تحت حاجبيه الى بطرس الذي يتحدث عن وكلموه بلطف ، الا أنهم انفضوا عنه سريعا ومحرجين •

وحده يوحنا بن زبدي ظل صامتا بعناد ، وتوما كذلك لم يقرر ، على ما يبدو ، أن يقول شيئا وهو يفكر بما يجري • راح يتبصر

باهتمام كلا من المسيح ويهوذا الجالسين جنبا الى جنب • وهـذا التقارب الغريب بين الجمال الالهي والقبح الفظيع ، بين انسان ذي نظرة وديعة واخطبوط ذي عينين ضخمتين جامدتين شرهتـين باهتتين انما أثقل على عقله كلغز عصي على الحل • بتوتر قطب جبينه المستوى الاملس وكوّر عينيه ظنا منه أنه بذلك سيرى بصورة أفضل ، ولكنه لم يصل الا الى أن يهوذا بدا له حقا وكأنه ذو ثمانية أرجل تهتز مضطربه • غير أن هذا لم يكن صحيحـا • كـان توما يعرف هذا ، واستمر ينظر بعناد من جديد •

واستعاد يهوذا جرأته شيئا فشيئا • أسبل يديه المضمومتين ، وارخى عضلاته التي جعلت فكيه متوترين ، وبحذر راح يبرز الى النور رأسه المفلطحة • لقد كان من قبل أيضا مرئيا للجميع ، ولكن تبدى ليهوذا أنه محجوب عن العيون بعمق واستغـلاق بواسطـة غشاوة خفية ولكنها كثيفة وماكرة • أما الان ، فكمن يخرج مـن حفرة تماما أحس في الضوء بجمجمته الغريبة ثم بعينيه • توقف وكشف وجهه كاملا بحزم • لم يحدث أي شيء • لقد ذهب بطرس الى مكان ما ، وجلس يسوع مفكرا ، مسندا رأسه على يده ، وبهـدوء راح يهز رجله المسفوعة بالشمس ، والتلاميذ يتحدثون فيما بينهم ، ووحده توما كان يتفحصه بأهتمام وجدية كخياط ذي ضمير يأخـذ قياسا • ابتسم يهوذا ، فلم يجب توما على ابتسامته ، ولكنه وضعها ، على ما يبدو ، في حسابه ككل الاشياء الاخرى ، وتابـع التفحص • بيد أن شيئا مكروها أزعج الجهة اليسرى من وجـه يهوذا ، فالتفت واذا بيوحنا ، الجميل النظيف الذي يخلو ضمـيره الثلجي البياض مـن أيـة لطخة ، ينظـر اليه بعينيه الباردتـين الجميلتين • ومشى يهوذا كما يمشي الجميع ، لكنه أحس وكأنه يضرب متثاقلا في الارض ككلب معاقب ، ودنا منه وقال :

ـ لماذا أنت صامت ، يا يوحنا ؟ ان كلامك كتفـاح ذهبي في صناديق فضية شفافة ، فاهد واحدة منها الى يهوذا الفقير جدا • حدق يوحنا بثبات الى العين الجامدة المفتوحة باتساع وظل صامتا • ورأى كيف انسل يهوذا وتمهل مترددا ، ثم اختفى في أعماق الباب المفتوح الظلمة •

واذ طلع البدر كاملا ، ذهب كثيرون يتنزهون • كذلك ذهب يسوع للنزهة ، ومن السطح الخفيض ، حيث اتخذ يهوذا مضجعه رأى الذاهبين • بدت كل قامة بيضاء في ضوء القمر خفيفة متمهلة لا تسير ، بل تنزلق تماما قدام ظلها الاسود ، وفجأة يسقط الانسان في شيء اسود وعندئذ يسمع صوته • وحين كان الناس يظهرون تحت القمر من جديد كانوا يبدون صامتين ، كجدران بيضاء ؛ كظلال سوداء ، كليل شفاف سديمي كله • كان الجميع تقريبا قد ناموا حين سمع يهوذا صوت المسيح الهادئ وهو عائد • وهمد كل شيء في البيت وحواليه • صاح الديك ، وبانزعاج وصوت عال ، كما في النهار ، نهق حمار ، كان قد استيقظ ، ثم صمت بتقطع وانزعاج • أما يهوذا فظل ساهرا يسترق السمع متخفيا • أضاء القمر نصف وجهه ، وكما في بحيرة متجمدة ، انعكس بغرابة في العين المفتوحة الضخمة •

فجأة تذكر شيئا وسعل على عجل وهو يمسح بكفه صدره المعافى كث الشعر : ربما هناك أحد لم ينم بعد ويستمع الى ما يفكر به يهوذا •

٢

شيئا فشيئا ألفوا يهوذا وما عادوا يلاحظون دعامته • اوكل المسيح اليه أمر الصندوق المالي ، كما كان مسؤولا عن الحاجات الاقتصادية ، فكان يشتري الغذاء واللباس الضروري ويوزع الصدقة ، وفي أوقات الترحال كان يؤمن مكان المكوث والمبيت • كان يقوم بهذا كله بمهارة عالية بحيث أنه سرعان ما حظي بارتياح بعض التلاميذ الذين رأوا جهوده • كان يهوذا يكذب باستمرار ، ولكنهم ألفوا هذا أيضا لانهم لم يروا سلوكا سيئا وراء كذبه الذي كان يضفي على حديثه وقصصه نكهة خاصة ، ويجعل الحياة أشبه بحكاية مضحكة ، بل ورهيبة أحيانا •

كان يستخلص من قصص يهوذا أنه يعرف الناس جميعا ، وأن كل انسان يعرفه انما أتى في حياته سوءا ما ، بل وارتكب

جريمة • أما الذين يسمون بالناس الجيدين فهم ، برأيه ، أولئك الذين يحسنون اخفاء أعمالهم وأفكارهم ، ولكن اذا ما عانقت واحدا منهم ولاطفته واستدرجته جيدا فسوف تسيل منه كل أنواع الدجل والسفالة والكذب كالقيح من جرح منكوء • كان يعترف طوعا أنه أيضا يكذب أحيانا ، ولكنه كان يقسم مؤكدا أن الاخرين يكذبون أكثر ، واذا كان في العالم من مخدوع فانما هو يهوذا • حدث أن بعض الناس خدعوه مرارا بطريقة وبأخرى • فقد اعترف له مرة حارس كنوز أحد رجال البلاط الاغنياء أنه طوال عشر سنوات لم تفارقه الرغبة في سرقة الثروة المؤتمن عليها ، ولكنه لا يستطيع خوفا من رجل البلاط ومن ضميره • وقد صدقه يهوذا مرة أخرى ، ولكنه فجأة أعاد ما سرقه الى رجل البلاط وخدع يهوذا ثانية • والجميع يخدعونه حتى الحيوانات • فعندما يداعب كلبا يعضه هذا من أصابعه ، وعندما يضربه بالعصا فانه يلحس ساقيه ويحدق في عينيه كابنته • لقد قتل هذا الكلب وطمره عميقا في الارض ، بل وغطاه بحجر كبيرة ، ولكن من يدري ؟ ربما لانه قتلهأصبح أكثر حياة وهو لا يرقد الان في الحفرة وانما يركض بمرح مع الكلاب الاخرى •

ضحك الجميع بسرور لقصة يهوذا ، وابتسم هو أيضا بتلذذ مكورا عينه الحية المضحكة ، وبالابتسامة نفسها اعترف في الحال أنه كذب قليلا ، فهو لم يقتل ذلك الكلب • ولكنه سيجده حتما وسيقتله لا محالة ، لانه لا يريد أن يكون مخدوعا • وازداد ضحكهم لكلمات يهوذا هذه •

الا انه كان أحيانا يتجاوز حدود الممكن والصحيح وينسب للناس ميولا لا يتصف بها حتى احيوان ، ويتهمهم بجرائم لم تقع ولا يمكن أن تقع • وبما أنه كان يشير اذ ذاك الى أسماء أجل الناس، فان البعض كانوا يستاؤون من النميمة ، ويتساءل اخرون مازحين :

ــ ولكن ألم يكن أبوك وأمك ، يا يهوذا ، أناسا طيبين ؟

كان يهوذا يكور عينيه ،يبتسم ويفتح ذراعيه • ومع اهتزاز رأسه كانت تهتز عينه الجامدة المفتوحة بسعة وينظر بصمت :

ـ ومن كان أبي ؟ ربما ذلك الرجل الذي كان يضربني بالقضيب ، وربما يكون الشيطان أو التيس أو الديك ٠ ترى ، هل يستطيع يهوذا أن يعرف جميع من قاسمتهم أمه الفراش ان ليهوذا آباء كثيرين ، فأيهم تقصدون ؟

وهنا يستاء الجميع ، فلشد ما كانوا يحترمون آباءهم وأمهاتهم ٠ أما متى المتشبع بقراءة الكتاب المقدس ، فكان بحدة يردد قول سليمان :

ـ من يغتب أمه وأباه ينطفىء مصباحه في قلب الظلام العميق ويندفع يوحنا بن زبدي في الحال :
ـ أما نحن ؟ فما السوء الذي ستذكرنا به أنت ، يا يهوذا الاسخريوطي ؟
ولكن هذا يلوح يديه بفزع مصطنع ، ينحني متجمعا وينوح كفقير يتوسل الصدقة من المارة :
ـ آه ، انهم يغوون يهوذا الفقير ! يضحكون من يهوذا ، يريدون أن يخدعوا يهوذا الفقير السريع التصديق !

وبينما كان جانب من وجهه يتخذ ملامح تهريجية ، كان الجانب الآخر يهتز بحدة وجدية ، وكانت عينه التي لا تغمض أبدا ، تحدق متسعة ٠ وكان بطرس سمعان يضحك من نكات الاسخريوطي اكثر من الجميع ، وبصوت أقوى منهم ٠ ولكن حدث مرة أن تجهم فجأة واعتراه صمت وكآبة ، فأسرع الى يهوذا وتماه جانبا وهو يجره من كمه ٠

ـ ويسوع ؟ ماذا تظن بيسوع ؟ ـ سأله بهمس مسموع وهو منحن نحوه ٠ ـ ولكن لا تمزح ، أرجوك ٠
التفت اليه يهوذا بغيظ :
ـ وماذا تظن أنت ؟
همس بطرس خائفا وفرحا :
ـ أظن أنه ابن الرب الحي ٠
ـ لماذا تسأل ؟ ماذا يمكن أن يقول لك يهوذا الذي أبوه تيس !
ـ ولكن ، هل تحبه ؟ لكأنك لا تحب أحدا ، يا يهوذا ٠

وبالغيظ الغريب نفسه قال الاسخريوطي بتقطع وحدة :
ـ أحبـه ٠

بعد هذا الحديث ظل بطرس قرابة يومين يدعو يهوذا صديقة الاخطبوط بصوت عال ، أما يهوذا فقد أصر علـى غيظه الكظيم وحاول أن يتحاشاه باللجوء الى زاوية مظلمة متجهما ، لامعا بعينه البيضاء التي لا تغمض ٠

وحده توما كان يستمع الى يهوذا بجدية كاملة ، فهو لم يكن يفهم النكات والتصنع والكذب والتلاعب بالكلام والافكار ، وكان يبحث في كل شيء عما هو أساسي وايجابي ٠٠وكثيرا ما كان يقاطع جميع قصص الاسخريوطي عـن النـاس السيئـين والسلوك السيء بملاحظات عملية موجزة :

ـ يجب أن تثبت ذلك ٠ هل سمعته بنفسك ؟ ومن كان حينئذ غيرك ؟ مـا اسمه ؟

كان يهوذا يغتـاظ ويصرخ زاعقـا أنـه سمع ورأى كـل هذا بنفسه ، غير أن توما العنيد كان يتابع استجوابـه بدأب وهدوء ريثما يعترف يهوذا أنه يكذب ، أو ريثما يختلق كذبا جديدا أقرب الى الواقع لطالما يتأمله توما مفكرا ٠ وما أن يعثر على خطأ حتـى يسرع بالحضور ويفضح الكاذب دونما اكتراث ٠ وعموما ، فقد أثار يهوذا فضولا قويا فيه ، وهذا ما خلق بينهما شيئا شبيها بالصداقة المليئة بالصراخ والضحك والشتائم من جهة ، وبالاسئلة الهادئة الملحاحة من جهة أخرى ٠ كان يهوذا يشعر أحيانا بقرف لا يطاق تجاه صديقه الغريب ، ويقول له بغيظ وتوسل تقريبا ، وهو يطعنه بنظرته الحادة :

ـ وما الذي تبتغيه ؟ لقد قلت كل شيء لك ، كل شيء ٠
ـ أريد أن تبرهن كيف يمكن أن يكون التيس أباك ؟ باصرار لا مبال كان توما يستجوبه وينتظر الجواب ٠
مرة ، بعد واحد من هذه الاسئلة ، صمت يهوذا فجأة ، وبتعجب را حيتحسسه بعينه من القدمين حتى الرأس ، فرأى قامة طويلة

مستقيمة ، ووجها رماديا وعينين براقنين شفافتين مستقيمتين ، وتجعيدتين سميكتين منطلقتين مـن الانـف ومختفيتـين في لحيته القاسية حسنة التشذيب ، وقال له باقتناع :

ـ يا لك من غبي ، يا توما ! بماذا تحلم في النوم : بشجيرة ، بجدار ؟ بحمار ؟ ما رأيك ، هل يسأل المرء عن أحلامه أيضا ؟

ـ وهل يرى الاحلام انسان اخر وليس هو بالذات ؟

تنهد توما بهدوء وراح يفكر • أما يهوذا فابتسم باحتقار ، أطبق عينه اللصوصية باحكام واستسلم بهدوء لاحلامه الشرسة ومناماته الفظيعة ورؤاه المجنونة التي كانت تمزق جمجمته المفلطحة المشطورة أجـزاء •

وحين يقترب المسافرون من قرية ، في اثناء تجوال يسوع فـي اليهودية ، كان الاسخريوطي يروي الطائح عن أهلها ويبشر بالسوء• ولكن حدث على الدوام تقريبـا أن الذيـن ذمهـم استقبلوا يسوع وأصدقاءه بفرح وأحاطوه باهتمامهم وحبهم وآمنوا به ، وكـان صندوق المال الموكل الى يهوذا يمتلىء بحيث يصعب حمله • عندئذ كانوا يضحكون من خطئه ، فيفتح ذراعيه باستسلام ويقول :

ـ هكذا ! هكذا ! ظن يهـوذا أنهـم سيئـون وهـم طيبون ، وسرعان ما صدقوا وقدموا المال • مرة أخرى اذن ، خدعوا يهوذا ، يهوذا الاسخريوطي الفقير سريع التصديق !

ولكنهم بعد أن ابتعدوا مرة عن قرية استقبلتهم بترحاب ، حمي النقاش بين توما ويهوذا فانكفأا عائدين لحل الخلافات • ولم يدركا يسوع وتلامذته الا في اليوم التالي • وكان توما متكدرا حزينا، أما يهوذا فكان ينظر بغطرسة وكأنه ينتظر أن يبـدأ الجميع الان يهنئونه ويشكرونه • أعلن توما بحزم وهو يدنو من المعلم :

ـ يهوذا على حق ، أيها الرب • انهم أناس شريرون حمقى ، وقد وقعت كلماتك على حجر •

وروى ما جرى في القرية • فبعد أن غادرهـا يسـوع وتلامذته شرعت امرأة مسنة تصرخ قائلة انهم سرقوا من عندها تيسا أبيض فتيا واتهمت بالسرقة المغادرين • تجادلوا معها في البداية ، ولكن حين شرعت تبرهن بعناد أنه ما كان لغير يسوع أن يسرق ، صدقها كثيرون ، بل وأرادوا الاندفاع للحاق بيسوع • ومع أنهم سرعـان ما عثروا على التيس عالقا في شجيرات كثة ، فقد قرروا أن يسـوع نصاب ، بل ولص ربما •

ـ هكذا ! اذن ! ـ صاح بطرس نافخا منخريه • ـ مولاي ، هل تريد أن أعود الى أولئك الحمقى و •••

ولكن يسوع الذي ظل صامتا طوال الوقت نظر بصرامة اليه ، فسكت بطرس وتوارى في الخلف وراء ظهور الاصدقاء • وبعد ذلك لم يتلفظ أحد بكلمة عما جرى وكأن شيئا لم يكن ابدا ، وكأن يهوذا لم يكن على حق • عبثا كان يبرز نفسه من كـل الجوانب محاولا أن يجعل وجهه المزدوج الضاري ذا الانف المعقوف متواضعا ، فما كانوا ينظرون اليه ، ولئن حدق به احد فبغير مودة بـل وأشبـه بالاحتقار •

ومنذ ذلك اليوم تغيرت علاقة يسوع به بغرابة • ولسبـب ما لم يكن يهوذا من قبل يتحدث مباشرة الى يسوع الذي لم يتوجه اليه بشكل مباشر أيضا ، ولكنه كان بالمقابل كثيرا ما ينظر اليـه بعينين حنونتين ويبتسم لبعض نكاته ، واذا مضى وقت طويل لا يراه كان يتساءل : وأين يهوذا ؟ أما الان فكان ينظر اليه تمامـا وكأنه لا يراه ، علما بأنه كالسابق ـ بل حتى وبتحديق اكثر ممـا مضى ـ كان يبحث عنه بعينيه كل مرة يشرع فيها بالحديث الـى التلاميذ أو الى الناس ، لكنه كان يجلس مديرا ظهره اليه ويلقي كلامه من فوق رأسه الى يهوذا ، أو يتظاهر بأنه لا يلاحظه البتة • وأيا كان الحديث الذي يقوله ، سواء يقول اليوم شيئا وغدا شيئا مخالفا تماما ، أو حتى اذا قال الشيء ذاته الذي يفكر به يهوذا أيضا فقد كان يبدو أنه يتحدث ضد يهوذا دوما • وكان بالنسبـة للجميع زهرة رقيقـة رائعة ، ووردة لبنانية عطرة ، أما بالنسبة ليهوذا فكان لا يترك الا أشواكا مدببة ، لكأن يهوذا من غير قلب ،

لكأنه من غير عينين وأنف ، ولا يفهم بصورة أفضل من الجميع جمال وريقات الورد الرقيقة البريئة ٠

وسأل صديقه مرة :

ـ توما ! هل تحب الوردة اللبنانية الصفراء ذات الوجه الاسمر والعينين اللتين كما الظبية ؟

فأجابه هذا بلا اكتراث

ـ الوردة ! أجل انني أستطيب أريجها ٠ غير أنني ما سمعت ان للورد وجوها سمراء وعيونا كما للظبية ٠

ـ كيف ؟ ولست تعرف ايضا ان للصبار ذي الايدي الكثيره الذي مزق بالامس ثيابك ذهرة حمراء واحدة وحسب ؟

غير أن توما لم يكن يعرف هذا أيضا ، علما أن الصبار قد علق بثيابه بالامس فعلا ومزقها الى نتف تافهة ٠ توما هذا لم يكن يعرف شيئا ، مع أنه كان يسأل عن كل شيء وينظر بثبات كبير بعينيه الشفافتين الصافيتين اللتين كان يتراءى عبرهما ، كما عبر زجاج فينيقي خلفه جدار وحمار مكتئب مربوط اليه ٠

وبعد مرور بعض الوقت جرت حادثة أخرى تبين من خلالها أن يهوذا على حق أيضا ٠ ففي واحدة من قرى اليهودية ، كان يذمهه لدرجة أنه نصح بتحاشي المرور فيها ، استقبلوا يسوع بعداء كبير . وبعد أن وعظ وفضح المنافقين استشاطوا غيظا وأرادوا أن يرجموه وتلاميذه بالحجارة ٠ كان الاعداء كثيرين ، ومما لا شك فيه أنه كان في مقدورهم تحقيق نيتهم القاتلة ، لولا يهوذا الاسخريوطي ٠ اعتراه خوف مجنون على يسوع وكأنه قد رأى بأم عينه قطرات الدم على قميصه الابيض فاندفع الى الحشد بغضب وعمى وراح يهدد ويصرخ ويتوسل ويكذب ، وبهذا أعطى الوقت والامكانية ليسوع وتلاميذه كي يرحلوا ٠ كان مدهشا في نشاطه ، كأن له عشر أرجل ، مضحكا ورهيبا في غضبه وتوسلاته ، وهو يتدافع مسعورا أمام الناس وقد سلب ألبابهم بقوة غريبة ما ٠ كان يصرخ أن الناصري ليس مسكونا بشيطان أبدا ، أنه مجرد نصاب ، لص ، يحب المال ككل تلاميذه ، كيهوذا نفسه ، كان يهز صندوق المال ، يتذلل

ويتضرع وهو يتهاوى على الارض • وشيئا فشيئا استحال سخط الحشد الى ضحك وقرف وأسبلت الايدي المرفوعة بالحجارة •

– ايس هؤلاء الناس جديرين بالموت على يد شريف • قال البعض ، في الوقت الذي كان فيه الاخرون ساهمين يشيعون بأعينهم يهوذا الذي راح يبتعد سريعا •

مرة أخرى توقع يهوذا التهاني والاطراء والشكر ، وشرع يتصنع ابراز ثيابه الممزقة ويكذب مدعيا أنهم ضربوه ، غير أنه انخدع مرة اخرى فيما ظن • مشى يسوع المغتاظ بخطى كبيرة صامتا ، وحتى يوحنا وبطرس لم يتجاسرا على الدنو منه ، وكل من وقعت عيناه على يهوذا بثيابه الممزقة ووجهه السعيد المنفعل الذي ما زال ، مع ذلك ، خائفا قليلا ، كان يطرد يهوذا بعيدا عنه بتعابير موجزة وغاضبة • كأنه ليس من انقذهم جميعا ، كأنه ليس من أنقذ معلمهم الذي يحبونه كثيرا •

– هل تريد أن ترى أغبياء ؟ قال لتوما الذي كان يسير في المؤخرة ساهما • اذن فانظر : انهم يسيرون في الطريق شرذمة ، كقطيع خراف ، يثيرون الغبار • أما أنت ، أيها الذكي توما ، فتجر قدميك في المؤخرة ، وأنا الكريم الرائع يهوذا أجر قدمي في المؤخره كعبد قذر لا مكان له بجانب السيد •

– لماذا تدعو نفسك رائعا ؟ تعجب توما •

– لانني جميل • أجاب يهوذا بيقين • وحدثه ، وهو يضيف الكثير ، كيف خدع أعداء يسوع وسخر منهم ومن حجارتهم الغبية •

– ولكنك كذبت ! قال توما •

– أجل ، كذبت • وافق الاسخريوطي بهدوء • لقد أعطيتهم ما طلبوه ، وأعادوا لي ما أنا بحاجة اليه • وما هو الكذب يا توما الذكي ؟ أما كان موت يسوع كذبا كبيرا لو تحقق ؟

– كان تصرفك سيئا • الان أثق أن الشيطان أبوك • فهو الذي علمك يا يهوذا •

ابيض وجه الاسخريوطي وفجأة سرعان ما انسحب ذلك على توما ، لكأن سحابة بيضاء ظهرت وحجبت الطريق ويسوع • وبسرعة أيضا ضمه يهوذا اليه بحركة خفيفة ، ضمه بقوة حتى شل حركاته وهمس في أذنه :

ـ اذن ، لقد علمني الشيطان ؟ هكذا ، هكذا ، يا توما • ولكن الم انقذ يسوع ؟ اذن ، فالشيطان يحب يسوع ، اذن فيسوع والحقيقة ضروريان للشيطان ؟ هكذا ، هكذا يا توما • الا أن أبي ليس الشيطان بل التيس •

ربما يسوع ضروري للتيس أيضا ؟ هـه ؟ أما أنتم أليس ضروريا لكم ، كلا ؟ والحقيقة ليست ضرورية ؟

بصعوبة تخلص توما الغاضب والخائف قليلا من بين يدي يهوذا الدبقتين وأسرع خطاه الى الامام، ولكنه سرعان ما أبطأ الخطى محاولا ادراك ما جرى •

جر يهوذا ساقيه في المؤخرة بهدوء وراح يقصر عن اللحاق بهم بالتدريج • اختلط الماشون في البعيد حفنة ملونة ، تعذر تمييز يسوع فيها بين هذه القامات الصغيرة • كذلك توما الصغير تحول الى نقطة رمادية ، وبغتة اختفى الجميع وراء المنعطف • التفت يهوذا وجانب الطريق ، ثم هبط بقفزات ضخمة الى عمق واد صخري • وبفعل الركض السريع النزق ، انفتح قميصه ولوحت يداه عاليا كمن سيطير • انزلق فوق المنحدر فهوى سريعا نحو الاسفل كصرة رمادية ، تخدشه الحجارة ، ثم نهض وهدد الجبل بقبضته غاضبا :

ـ حتى أنت ، أيها اللعين !

فجأة استبدل سرعة حركاته بتمهل متجهم ساهم ، اختار مكانا بالقرب من صخرة كبيرة وجلس بأناة • التفت ، تماما كمن يبحث عن وضع مريح ، ضم كفيه على بعضهما فوق الحجر الرمادي وأسند رأسه اليها بتعب • وهكذا جلس ساعة ، ساعتين دونما حراك يخدع الطيور جامدا ورماديا كالحجر نفسه • قدامه وخلفه ومن جميع الجهات كانت ترتفع جدران الوادي تقطع طرف

السماء الزرقاء بخط مرهف • وفي كل مكان كانت الاحجار الرمادية الضخمة الغائصة في الارض تشمخ عاليا وكأن مطرا حجريا قد انهمر هنا وتجمدت قطراته الثقيلة في تفكير لا نهائي • وكان هذا الوادي الصحراوي الوحشة شبيها بجمجمة مقلوبة مقطوعة ، وكل حجر فيه كان كفكرة تجمدت ، وكان عددها كبيرا ، وكانت تفكر كلها بتعب ، دونما حدود وباصرار •

هو ذا عقرب مخدوع يدب بمودة على أرجله المهزوزة قرب يهوذا من غير أن يرفع رأسه عن الحجر ، وتوقفت عيناه بثبات مرة أخرى على شيء ما ، كلاهما حاقدتان ، محجوبتان بكدر غريب ضارب الى البياض ، كلاهما عمياوان تماما وبصيرتان للغاية • هي ذي الظلمة الليلية الهادئة أخذت تنبعث من الارض والاحجار والشقوق ، تحيط بيهوذا الجامد وتحبو سريعة الى الاعلى ، نحو السماء المضيئة الشاحبة • أقبل الليل بأفكاره وأحلامه •

لم يعد يهوذا تلك الليلة الى النزل ، اما التلاميذ ، وقد صرفتهم عن التفكير هموم الطعام والشراب ، فتذمروا من اهماله •

٣

شكا المسيح من التعب مرة عند الظهيرة اذ كان وتلاميذه يخوضون طريقا محجرة جبلية عديمة الظلال ، وقد مضى عليهم في الطريق أكثر من خمس ساعات • توقف التلاميذ ، ومد بطرس وصديقه يوحنا عباءتيهما وعباءات تلاميذ اخرين على الارض وثبتوها من الاعلى بين صخرتين عاليتين بحيث أقاموا ليسوع ما يشبه الخيمة • فاستلقى في الخيمة يرتاح من القيظ ، بينما راحوا يسلونه بنكات وأحاديث مرحة • ولكنم حين لاحظوا أن الاحاديث أيضا ترهقه ابتعدوا عنه من تلقاء أنفسهم وانهمكوا بأشغال مختلفة لقلة تأثرهم بالتعب والحر • بعضهم راح يبحث في سفح الجبل عن جذور تؤكل فيقدمها ، اذ يجدها ، الى يسوع ، بعضهم شرع يصعد الجبل عاليا ويبحث ساهما عن حدود المدى الازرق واذ لا يجده يتابع التسلق الى صخور ناتئة جديدة • وجد يوحنا بين

الصخور حرذونا جميلا فأحضره في كفيه الناعمتين ضاحكا الى يسوع • كان الحرذون يحدق بعينيه الجاحظتين في عينيه ، ثم انزلق سريعا بجسده البارد عبر اليد الدافئة ، وسرعان ما اختفى يجر ذيله الناعم المرتجف •

أما بطرس الذي لم يكن يحب المسرات الهادئة فانهمك ومعه فيليب باقتلاع الاحجار الكبيرة من الجبل ورميها الى الاسفل ، متنافسين في ابراز القوة • انجذب باقي التلاميذ الى ضحكهما الصاخب ، فتجمعوا حولهما شيئا فشيئا وساهموا في اللعبة • كانا يستجمعان قواهما لاقتلاع حجر انغرس في الارض قديما ، فيرفعانه بأيديهما عاليا ويلقيانه عبر السفح • ثقيلا كان يصطدم بما في طريقه باعثا ضجيجا قصيرا كليلا ، ويصمت برهة ثم تبدأ قفزته الاولى حيية ، ومع كل تصادم بالارض يتزود بالسرعة والعزم فيصبح خفيفا ، ضاريا ، مدمرا • لا يعود يقفز ، بل يطير مكشرا عن أسنانه بينما الريح تصفر مفسحة مجالا لجثته الدائرية الكليلة • وعند النهاية يندفع الحجر الى الاعلى بحركة سلسة أخيرة : وباطمئنان ، في شرود ثقيل يطير نحو الاسفل دائريا ، الى لجة هاوية مجهولة •

ـ اي ، حجرا اخر ايضا ! يصرخ بطرس • كانت أسنانه البيضاء تلتمع وسط لحيته السوداء وشاربيه ، تعرى صدره الجبار ويداه ، والاحجار القديمة الغاضبة وهي تعجب ببلاهة للقوة التي ترفعها ، كانت طائعة تتدافع واحدة تلو أخرى الى اللجة • حتى يوحنا الهزيل رمى أحجارا صغيرة • وكان يسوع يبتسم بهدوء وينظر الى تسليتهم •

ـ مالك يا يهوذا ؟ لماذا لا تشارك في اللعب ؟ يبدو أن في الامر متعة كبيرة •

سأل توما اذ وجد صديقه الغريب جامدا وراء صخرة كبيرة رمادية •

ـ ما الحاجة للدعوة ؟ ها أنذا أدعوك ، هيا • أنظر أية احجار يرميها بطرس •

القى اليه يهوذا نظرة جانبية ، وهنا شعر توما بابهام لاول مرة أن ليهوذا الاسخريوطي وجهين . ولكن لم يتسن له أن يفهم كيف قال يهوذا بنغمة صوته العادية المرائية والمضحكة في آن معا :

- وهل هناك من هو أقوى من بطرس ؟ عندما يصرخ تظن جميع الحمير في أورشليم أن المسيح قد جاء ، فترفع أصواتها أيضا . هل سمعت نهيقها مرة يا توما ؟

دخل يهوذا حلقة اللاعبين وهو يبتسم ببشاشة ويضم ثوبه بحياء الى صدره المغمور بشعر أحمر مكزبر . وبما أن الجميع كانوا مسرورين جدا ، فقد استقبلوه بفرح ونكات صاخبة . وحتى يوحنا ابتسم بتسامح حين انحنى يهوذا فوق صخرة كبيرة وهو يئن ويتصنع الالم . ولكنه رفعها بسهولة وقذف بها . اهتزت عينه العمياء المفتوحة باتساع واستقرت بثبات على بطرس ، أما العين الاخرى ، الماكرة ، المرحة ، ففاضت بضحك هادىء .

- كلا ، فلتقذف أيضا ! قال بطرس بغضب .

وأخذ كلاهما يرفع أحجارا عملاقة ويقذف بها ، بينما راح التلاميذ ينظرون اليهما مشدوهين . رمى بطرس حجرا ضخما ، أما يهوذا فرمى حجرا أكبر . متجهما ، متمعنا ، حانقا ، قلب بطرس جزءا من صخرة ثم رفعه مترنحا ورماه نحو الاسفل . استمر يهوذا يبتسم ، ووقعت عيناه على حجر أكبر ، فغرس أصابعه الطويلة فيها بحنان ثم سلخها ، ترنح معها ودفعها عبر الهاوية . كان بطرس يرمي حجره ويرتد الى الخلف يراقب سقوطه ، بينما كان يهوذا ينثني الى الامام ، ينحني ويفتح ذراعيه الطويلتين المهتزتين وكأنه يريد أن يطير وراء الحجر حالا . وأخيرا تشبث كلاهما ، أولا بطرس ثم يهوذا ، بحجر قديم شائب ، ولكن أحدا منهما لم يستطع رفعه . دنا بطرس محمرا كله من يسوع بحزم وقال بصوت عال :

- الهي ! لا أريد أن يكون يهوذا أقوى مني . ساعدني على رفع هذا الحجر ورميه .

بهدوء أجابه يسوع بشيء ما . هز بطرس كتفيه العريضتين

باستياء ولكنه لم يتجاسر على الاعتراض بشيء فانكفأ عائـدا يقـول :

ـ لقد قال : ومن سيساعد الاسخريوطي ؟

ونظر الى يهوذا الذي كان يلهث وهو يكز على أسنانه بشدة ويتابع عناق الحجر العنيد ، وضحك بفرح :

ـ هكذا ، مريض ! انظروا ماذا يفعل مريضنا ، يهوذا الفقير ! وضحك يهوذا نفسه وقد انكشف كذبه بغتة ، وضحك الجميع : حتى توما افتر شارباه الاشهبان المستقيمان المتدليان فوق شفتيه عن بسمة ناعمة • وهكذا تابع الجميع السير وهم يثرثرون ويضحكون بمودة • وبطرس الذي تصالح تماما مع المنتصر ، كان من وقت الى اخر يدفعه بقبضته في خاصرته مداعبا ويضحك بصخب :

ـ هكذا ، مريض !

أثنى الجميع على يهوذا واعترفوا به منتصرا ، وثرثر الجميع معه بمودة ، غير أن يسوع ، يسوع لم يثن على يهوذا في هذه المرة أيضا • كان يسير صامتا في المقدمة يقضم نبتة عشب • وشيئا فشيئا كف التلاميذ واحدا بعد اخر عن الضحـك ، وانتقلوا الـى جانب يسوع ، وما هو الا وقت قصير حتى سار الجميع في المقدمه حفنة متراصة ، أما يهوذا ـ يهوذا المنتصر ـ يهوذا القوي ـ فراح وحده يلوب خلفهم يتجرع الغبار •

ها قد توقفوا ووضع يسوع يده على كتف بطرس مشيرا باليد الاخرى الى البعيد حيث تراءت أورشليـم في الغبش ، وبحرص تقبل ظهر بطرس العريض الجبار هذه اليد النحيلة المسفوعة •

توقفوا للمبيت في بيت عنيا في بيت لازر • وعندما تحلق الجميع ليتحدثوا ، ظن يهوذا أنهم سيتذكرون نصره على بطرس ، فجلس قريبا • غير أن التلاميذ كانوا صامتين وساهمين بعمق • وصـور الطريق التي قطعوها : الشمس والحجر والعشب والمسيح المضطجع في الخيمة ، كانت تسبح في الرأس بهدوء ، تبعث أحلاما مبهمة ، ولكنها لذيذة ، حول حركة أبدية تحت الشمس • كان الجسد المرهق

يرتاح بمتعة ويفكر كله بشيء لغزي الروعة وكبير ، ولم يتذكر أحد يهوذا ٠

خرج يهوذا ٠ ثم عاد ٠ تكلم يسوع ، وفي الصمت أصغى التلاميذ الى حديثه ٠ دونما حراك ، جلست مريم ، كتمثال ، عند قدميه وقد ألقت رأسها الى الخلف تنظر في وجهه ٠ وحاول يوحنا ، وقد دنا قريبا ، أن تمس يده ثوب المعلم من غير أن تزعجه ٠ لامسه وتجمد ٠ وتنفس بطرس بصخب وقوة مكررا بتنفسه أقوال يسوع ٠

توقف الاسخريوطي عند العتبة ، وبازدراء تحاشى النظر الى المجتمعين ، وانصبت ناره كلها على يسوع ٠ وبمقدار ما نظر انطفأ كل شيء حوله وتكلل بالعتم والصمت ، ووحده أشرق المسيح ويده مشرعة ٠ ولكنه هو الاخر وكأنه قد ارتفع في الهواء ، كأنه ذاب وأصبح كله مكونا من ضباب فوق بحيرة متشبع بضوء القمر الغارب ، وكان حديثه الناعم يرن بعذوبة في مكان بعيد بعيد ٠ واذ راح يحدق في الشبح النائس ويصغي بعمق الى لحن الكلمات الشفافة البعيدة الرقيق ، قبض يهوذا بأصابع حديدية على الروح كلها ، وشرع صامتا في ظلامها المترامي يبني شيئا ضخما ٠ على مهل ، في الظلام الدامس ، أخذ يرفع أشياء هائلة تشبه الجبال ويكدسها واحدا فوق الاخر ، مرة أخرى راح يرفع ، ومرة أخرى راح يكدس ، فنما شيء في الظلام ، اتسع بدون صوت ومدد الحدود ٠ أحس رأسه قبة ، وفي ظلامها الدامس استمر يكبر شيء هائل ، وصامتا راح يعمل أحد ما : يرفع أثقالا كالجبال ، يكدس واحدا فوق الاخر ثم يرفع من جديد ٠٠ وفي مكان ما كانت ترن كلمات شفافة بعيدة بعذوبة ٠

هكذا وقف يسد الباب ، ضخما أسود ، وكان يسوع يتكلم ، وبصوت عال يكرر بطرس كلماته بتنفس متقطع وقوي ٠ ولكن يسوع صمت فجأة بصوت حاد لم يكتمل ، وصاح بطرس بحماس ، تماما كمن أفاق :

– يا الهي ! انك ترى حقائق الحياة الابدية !

ولكن يسوع ظل صامتا وتطلع بثبات نحو مكان ما ٠ وعندما تابعوا نظره رأوا في الباب يهوذا وقد تحجر فاغرا فاه جامدة عيناه ٠ وضحكوا من غير أن يفهموا القضية ٠ أما متى المتشيع بقراءة الكتاب المقدس فلمس كتف يهوذا وردد قول سليمان :

ـ من ينظر بوداعة يرحم ، ومن يصادف في الباب يضايق الاخرين ٠ جفل يهوذا ، بل وصرخ من الفزع ، وركض كل ما فيه : العينان ، اليدان والساقان ـ في جهات مختلفة ، كحيوان ينظر فيرى فجأة عيني انسان فوقه ٠ سار يسوع الى يهوذا مباشرة وهو يحمل على شفتيه كلمة ما ، وعبر محاذاة يهوذا من باب مفتوح أصبح فارغا ٠

□

في وسط الليل اقترب توما من مضجع يهوذا ، جلس القرفصاء وسأله :

ـ هل تبكي يا يهوذا ؟

ـ كلا ٠ ابتعد يا توما ٠

ـ فلم تئن وأسنانك تصرف ؟ هل أنت مريض ؟

صمت يهوذا ، ثم راحت تتساقط من شفتيه كلمات ثقيله واحدة تلو أخرى طافحة بالغيظ والضجر :

ـ لماذا لا يحبني ؟ لماذا يحب أولئك ؟ الست أجمل وأفضل وأقوى منهم ؟ ألست أنا الذي أنقذت حياته بينما هرب أولئك منحنين كالكلاب الجبانة ؟

ـ لست على حق تماما يا صديقي المسكين ٠ انك لست جميلا على الاطلاق ، ولسانك ايضا كريه كوجهك ٠ انك تكذب وتغتاب على الدوام ، فكيف تريد أن يحبك يسوع ؟

ولكن يهوذا كمن لم يسمعه أبدا تابع وهو يهتز بثقل في الظلام :

ـ لماذا هو ليس مع يهوذا وانما مع أولئك الذين لا يحبونه ؟ جاءه يوحنا بجرذون فجئته أنا بأفعى سامة ٠ رمى بطرس

الحجارة وكنت مستعدا لأقلب الجبل من أجله ! ولكن ما هي الافعى السامة ؟ هي ذي مخلوع سنها ، وهي ترقد قلادة حول الرقبة ٠ وما هو الجبل الذي يمكن اجتثاثه باليدين ودوسه بالقدمين ؟ لكنت أعطيته يهوذا ، الجريء والجميل يهوذا ! أما الان فسوف يهلك ، وسيهلك يهوذا معه !

ـ ان ما تقوله غريب يا يهوذا !

ـ الجميزة اليابسة التي يحب قطعها ببلطة هي أنا ، وهو قال هذا عني ٠ لماذا لا يقصعها ؟ انه لا يجرؤ يا توما ٠ أنا أعرفه ، انه يخاف يهوذا ! انه يختبىء عن يهوذا الجريء القوي الرائع ؛ انه يحب الحمقى والخونة والكذابين ٠ أنت كذاب يا توما ، هل سمعت بهذا ؟

استولى العجب على توما وأراد الاعتراض ، ولكنه فكر أن يهوذا بقوة أكبر ٠ كان يئن وأسنانه تصرف ، وكان مسموعا كيف
يهوذا بقوة أكبر ٠ كان يئن وأسنانه تصرف ، وكان مسموعا كيف
يتحرك جسده الكبير كله تحت الغطاء ٠

ـ أي شيء يؤلم يهوذا هكذا ؟ من وضع النار على جسده ؟ انه يقدم ابنه للكلاب ! انه يعطي ابنته لقاطعي الطريق يدنسونها، وعروسه للفجور ٠ اذا ، أليس قلب يهوذا رقيقا ؟ اذهب ، يا توما ، اذهب ، أيها الغبي ٠ وليبق وحده يهوذا القوي الجريء والرائع !

٤

أخفى يهوذا بضعة دنانير ، وانكشف هذا بفضل توما الذي رأى مصادفة كم كانت النقود المدفوعة ٠ كان يمكن افتراض أن بطرس الغاضب يهوذا من ياقة ثوبه وجره جرا تقريبا الى يسوع ، يهوذا يقوم بالسرقة ليس للمرة الاولى ، واغتاظ الجميع ٠ قبض ولم يقاوم يهوذا المرتعب الشاحب ٠

ـ انظر ، أيها المعلم ! هو ذا المهرج ! هو ذا اللص ! انت صدقته وهو يسرق أموالنا ٠ لص ! سافل ! ان تسمح فأنا بنفسي٠٠٠

ولكن يسوع صمت ٠ ونظـر اليـه بطرس باهتمام ثم احمر بسرعة وأرخى يده القابضة على ياقـة يهوذا ، فأصلح هـذا مـن وضعه بخجل ونظر بطرف عينه الى بطرس واتخذ مظهـرا خانعا مغتاظا كمجرم نادم ٠

ـ هكذا اذن ـ قال بطرس بغضب واغلق الباب بصخب وهـو يخرج ٠ وكان الجميع مستائين ، قالوا انهم لن يبقوا الان مع يهوذا مهما يكن الامر ـ ولكن يوحنا سرعان ما أدرك شيئا وانسل عبـر الباب الذي سمع خلفه صوت يسوع هادئا بل وحنونا ٠ وحين خرج من هناك بعد وقت كان شاحبا وكانت عيناه المطرقتان حمراوين كما لو بفعل دموع بادية الاثـر ٠

ـ المعلم قال ٠٠٠ المعلم قال ان يهوذا يستطيع أن يأخذ مالا مقدار ما يشاء ٠

ضحك بطرس بغضب ٠ وبسرعة نظر اليه يوحنا لائما ، واشتعل كله فجأة وقد مزج الدموع بالغضب ، والدهشة بالدموع ، صـرخ بصوت رنان :

ـ وليس لاحد أن يحسب كم من المال أخذ يهودا ٠ انه أخونا ، وكل نقوده نقودنا ، واذا لزمه الكثير فليأخذ كثيرا من غير أن يحدث أو يستشير أحدا ٠ يهوذا أخونا وقد زدتم في الاساءة اليه ـ هكذا قال المعلم ٠٠ عار علينا ـ أيها الاخوة !

كان يهوذا واقفا في الباب شاحبا يبتسم باعوجاج ، فتقـدم منه يوحنا بحركة منسابة وقبله ثلاثا ٠ ثم تبعه يعقوب وفيليـب والاخرون بحيرة وهم ينظرون الى بعضهم ٠ وبعد كل قبلة كـان يهوذا يمسح فمه ، ولكنه كان يتمطق بقبلاته وكأن الصوت الـذي يحدثه يمنحه متعة ٠ وكان بطـرس اخر من اقترب ٠

ـ نحن هنا أغبياء جميعا ، كلنا عميان ، يا يهوذا ٠ وحده يرى ، وحده ذكي ٠ هل لي أن أقبلك ؟

ـ ولم لا ؟ فلتقبل ! وافق يهوذا ٠

قبله بطرس بحرارة وهمس في أذنه بصوت عال :
ـ لقد كدت أخنقك ! هم كيفما اتفـق ، أمـا أنا ففـي عنقك تماما ! أما تألمت ؟
ـ سأذهب اليه وأخبره بكل شيء • لقد غضبت منه أيضا •
قال بطرس بكمد محاولا أن يشق الباب بهدوء وبلا صخب •
ـ وما بك يا توما ؟ تساءل يوحنا بحـدة وقد راقب أفعـال التلاميذ وأقوالهم •
ـ لا اعرف بعد • يجب أن أفكر •

وفكر توما طويلا ، طوال اليوم تقريبا • تفرق التلاميذ كل الى عمله • وكان بطرس قد راح ، في مكان ما خلـف الجـدار ، يصرخ بصوت عال وبمرح • أما توما فكان مستغرقا في التفكير • لكـان فعل ذلك بسرعة أكبر ، ولكن يهوذا أعاقه قليلا وهو يتتبعه بنظرته المتهكمة ، ويسأله بجدية أحيانا :

ـ وكيف يا توما ؟ كيف تسير الحال ؟
ثم أحضر يهوذا صندوق ماله وأخذ يعد النقود بصوت عـال مثيرا رنين القطع النقدية ، متصنعا عدم الالتفات الى توما •
ـ واحد وعشرون ، اثنان وعشرون ، ثلاثة وعشرون ••• أنظـر يا توما ، هي ذي مرة أخرى قطعة زائفة • آه ، يا للناس النصابين جميعا ، حتى انهم يتبرعون بأموال زائفة ••• خمسة وعشرون ، ستة وعشرون •••
اقترب توما منه بحزم ، كان ذلك وقت الغروب ، وقال :
ـ ان يهوذا على حق • تعال أقبلك •
ـ هكذا ؟ تسع وعشرون ، ثلاثون • عبثا • لسوف أسرق مـن جديد • واحد وثلاثون •••
ـ كيف يمكن أن تسرق عندما لا يوجد ما هو لك وما هو لغيرك • سوف تأخذ ببساطة مقدار ما يلزمك ، أيها الاخ •
ـ وقد احتجت الى كل هذا الوقت لكي تعيد كلامه ؟ انـك لا تثمن الوقت ، أيها الذكي توما •
ـ يبدو أنك تسخر مني ، أيها الاخ ؟
ـ فلتفكر ، هل حسنا تفعل أيها الفاضل توما حين تكرر كلامه ؟

فهو الذي قال ما « عنده » ، ولست أنت • هو الذي قبلني ، أما أنتم فقد دنستم فمي وحسب • انني أشعر حتى الان كيف تحبو علي شفاهكم الرطبة • كم ذلك مقرف ، يا توما الطبيب • ثمانية وثلاثون ، تسعة وثلاثون ، أربعون •

ـ ولكن معلمنا • كيف لنا أن لا نكرر كلام المعلم ؟

ـ وهل تمزقت ياقة يهوذا ؟ هو عار الان وما من شيء عليه للامساك به ؟ سيذهب المعلم من البيت ، وسيسرق يهوذا من جديد ثلاثة دنانير عن غير قصد • ترى ، ألن تمسكوا به من الياقة ذاتها ؟

ـ نحن الان نعرف يا يهوذا • لقد فهمنا •

ـ ولكن ، أليس لكل التلاميذ ذاكرة سيئة ؟ ألم يخدع التلاميذ جميع معلميهم ؟ رفع المعلم العصا فصرخ التلاميذ : نحن نعرف ، أيها المعلم ! وحين ذهب المعلم لينام ، قال التلاميذ : أليس هذا ما علمنا اياه المعلم ؟ وهنا أيضا • لقد دعوتني صباح اليوم لصا • وتدعوني عند المساء أخا • فكيف ستدعوني غدا ؟

ضحك يهوذا ، ثم تابع وهو يرفع الصندوق الثقيل الرنان بسهولة :

ـ حين تهب الريح قوية فانها ترفع الاوساخ • وينظر الاغبياء الى الاوساخ ويقولون : هي الريح ! ولكن ما هي الا أوساخ وحسب ، أيها الطبيب توما ، روث حمير داسته الارجل • هو ذا يصطدم بجدار فيرقد بهدوء عند أسفله ، أما الريح فتطير قدما ، الريح تطير قدما ، أيها الطبيب توما !

وأبرز يهوذا يده عبر الجدار محذرا وضحك من جديد :

ـ انني سعيد لمرحك ، ـ قال توما • ـ ولكنه مؤسف جدا أن في مرحك هذا القدر الكبير من الشر •

ـ كيف للانسان أن لا يكون مرحا وقد أوسعوه تقبيلا ، وهو مفيد كثيرا ؟ لولا انني سرقت ثلاثة دنانير ، هل كان عرف يوحنا ما هي

الدهشة ؟ ترى ، أليس حسنا أن يكون المرء* مشجبا ليعلق ويجفف عليه يوحنا فضيلته المبتلة ، وتوما عقله الذي قضمه العث ؟
ـ يبدو لي أن الافضل أن أذهب ٠
ـ ولكنني أمزح ٠ انني أمزح ، أيها الطيب توما ٠ فأنا لا أريد الا أن اعرف ان كنت حقا ترغب بتقبيل يهوذا المسن الكريه ، اللص الذي سرق ثلاثة دنانير وأعطاها لفاجرة ٠
ـ لفاجرة ؟ ـ تعجب توما ـ وهل أعلمت المعلم بذلك ؟
ـ ها أنت ثانية تشك يا توما ٠ أجل ، لفاجرة ٠ ولكن ، حبذا لو كنت تعرف أية امرأة بائسة هي ، يا توما ٠ لم تأكل شيئا طوال يومين ٠٠٠
ـ لعلك تعرف هذا ؟
ـ نعم ، بالطبع ٠ فأنا بالذات كنت معها يومين ورأيت أنها لا تأكل شيئا ، ولا تشرب الا النبيذ الاحمر وحده ٠ كانت تترنح من الانهاك ، وكنت أسقط معها ٠٠٠
نهض توما مسرعا ، وبعد أن ابتعد لبضع خطوات رمى يهوذا بقوله :
ـ يبدو أن الشيطان يسكنك ، يا يهوذا ٠
كان توما في الغسق المخيم يسمع كيف يرن بشكاة صندوق المال الثقيل بين يدي يهوذا ٠ وكان يهوذا يضحك ٠

غير أن توما كان مضطرا في اليوم التالي ليدرك انه أخطأ في يهوذا ، فكم كان الاسخريوطي بسيطا ولطيفا وجديا في آن معا ٠ لم يكن يتصنع ولا يمزح بلؤم ولا ينحني ولا يهين ، ولكنه كان يقوم بعمله الاقتصادي خفية وبهدوء ٠ كان نشيطا كالسابق ٠ كأنه ليس بساقين ككل الناس ، وانما بعشر أرجل تماما ، ولكنه كان يركض من غير ضجيج أو صأصأة ، من غير عويل أو ضحك شبيه بضحك الضباع الذي كان يصاحب به جميع أفعاله من قبل ٠ وعندما كان يسوع يبدأ يتحدث ، كان يجلس في الزاوية بهدوء ، يضم يديه ورجليه وتنظر بجمال فائق عيناه الكبيرتان اللتان تلفتان انتباه الكثيرين الى ذلك ٠ وكف عن قول ما يؤذي الناس وكان غالبا ما يصمت بحيث أن متى الصارم بالذات وجد أن من الممكن الثناء عليه بترديد كلمات سليمان :

ـ قليل العقل يبدي احتقاره لقريبه ، ولكن العاقل يصمت • ورفع اصبعه مشيرا بذلك الى سلاطة يهوذا السابقة • وسرعان ما لاحظ الجميع هذا التغير في يهوذا واغتبطوا له ، وبالرغم من ذلك كان يسوع وحده ينظر اليه بغرابة ، مع أنه لم يعبر مباشرة عن نفوره بأي شيء • ويوحنا نفسه الذي أخذ الان يهوذا يبدي له احتراما عميقا كتلميذ محبوب من يسوع وكمدافع عنه في حالة الدنانير الثلاثة ، بطرس هذا أصبح يعامله ببعض اللطف ، بل ويدخل معه في حديث أحيانا •

ـ كيف تظن يا يهوذا ـ قال له مرة ببساطة ـ من منا سيكون الاول بجانب يسوع في ملكوت السماء ، أنا أم بطرس ؟

فكر يهوذا ثم أجاب :

ـ أفترض أن أنت •

ـ أما بطرس فيظن انه هو • ـ وضحك يوحنا بتهكم •

ـ كلا فبطرس سيشتت الملائكة جميعا بصراخه ، الا تسمع كيف يصرخ ؟ بالطبع سوف يخاصمك ويحاول احتلال المكان الاول لانه يؤكد حبه ليسوع أيضا ، ولكنه قد هرم قليلا ، أما أنت فشاب، هو ثقيل الخطو وأنت تعدو بسرعة ، وأنت أول من سيدخل الى هناك مع المسيح • أليس كذلك ؟

ـ أجل ، سوف لن أترك يسوع • ـ أجاب يوحنا موافقا • وفي ذلك اليوم نفسه وبمثل هذا السؤال تماما توجه بطرس سمعان الى يهوذا • ولكن ، خشية أن يسمع الاخرون صوته العالي ، اقتاد يهوذا الى الزاوية الاكثر بعدا وراء البيت •

ـ وهكذا ، كيف تظن ؟ ـ سأله مضطربا ـ انك ذكي ، ويسوع بالذات يمتدح عقلك ، وأنت سوف تقول الحقيقة •

ـ أنت ، بالطبع • ـ أجاب الاسخريوطي حازما ، فصرخ بطرس مستنكرا :

ـ لقد قلت له !

ـ ولكنه ، بالطبع ، سيحاول هناك أيضا أن يسلبك المقام الاول •

ـ بالطبع .
ـ ولكن ماذا في مقدوره أن يفعل حين ستكون قد استوليت على المقام ؟ ألست اول من سيذهب مع يسوع الى هناك ؟ انك لن تتركه وحده . ألم يسمك حجرا ؟
ألقى بطرس يده على كتف يهوذا وقال بحرارة :

ـ أقول لك يا يهوذا انك الاذكى بيننا . ولكن لماذا أنت مضحك هكذا وشرير ؟ ان المعلم لا يحب هذا . والا لاستطعت أنت ايضا ان تصبح تلميذا محبوبا لا تقل عن يوحنا . غير أنني ـ ورفع بطرس يده مهددا ـ لن أعطيك أنت أيضا مكاني قرب يسوع لا في الارض ولا هناك . هل تسمع !

هكذا حاول يهوذا أن يقدم المسرة للجميع ، ولكنه كان يفكر بما يخصه في تلك الحالة . وبينما يحتفظ بتواضعه وهدوئه وزهده كان يعرف كيف يقول لكل واحد ما يعجبه على وجه الخصوص . وهكذا قال لتوما :

ـ يثق الغبي بكل كلمة ، أما العاقل فيتبصر دروبه .

وضرب مثلا لمتى الذي كان يشكو من بعض الافراط في الطعام والشراب ويخجل من ذلك ، فاستشهد بكلمات سليمان الحكيم المفضل لديه :

ـ يأكل التقي حتى الشبع ، أما بطن الخطاة فيعاني الحرمان . ولكنه نادرا ما كان يقول كلاما طيبا يضفي عليه قيمة خاصة ، كان يصمت في الغالب وباهتمام يتنصت الى كل شيء يقال ويفكر بشيء ما . غير أن يهوذا الغارق في التفكير كان ذا منظر كريه ومضحك يبعث على الرعب في آن معا . وحين كانت عينه الحية الماكرة تتحرك ، كان يهوذا يبدو بسيطا وخيرا ، ولكن حين كانت كلتا عينيه تتوقفان جامدتين ، وفوق جبينه الناتيء يتجمع الجلد كتلا غريبة وتجاعيد ، كان يلوح هاجس مضن بأفكار خاصة تماما تتقلب تحت هذه الجمجمة . أفكار غريبة تماما ، متميزة تماما وليس لها لغة أبدا ، كانت تحيط الاسخريوطي الساهم بصمت السر

الاصم ، وكان يريد أن يسرع فيبدأ الكلام والحركة ، وحتى الكذب ، اذ أن الكذب ذاته المنطوق بلغة بشرية يبدو حقيقة ونورا أمام هذا الصمت الساكن الاصم اليائس ،

ـ ثانية تستغرق في التفكير ، يا يهوذا ؟ صرخ بطرس بصوته الصافي ووجهه ، ممزقا صمت الافكار اليهوذية الاصم فجأة ، طاردا اياها الى ركن في زاوية مظلمة ، ـ فيما تفكر ؟

ـ في أشياء كثيرة ، ـ أجاب الاسخريوطي بابتسامة هادئة ، ولعله بعد أن لاحظ كيف يؤثر صمته على الاخرين بشكل سيء ، كثيرا ما راح يبتعد عن التلاميذ ويمضي وقتا طويلا في نزهات منعزلا ، أو يتسلق سطحا مستويا ويجلس هناك بهدوء ، وقد خاف توما مرارا حين كان يقع على حين غرة في العتمة على كومة رمادية تمتد منها بغتة يدا يهوذا ورجلاه ويترامى صوته المزدوج ،

غير أن يهوذا كان شبيها بيهوذا السالف بحدة خاصة وبغرابة ، وحدث هذا بالضبط في أثناء النقاش حول الاولية في ملكوت السماء ، كان بطرس ويوحنا في حضرة المعلم يؤنب كل منهما الاخر وينازعه على مكانه بجوار يسوع : راحا يعددان خدماتهما ، يقيسان مستوى حبهما ليسوع ، يتحمسان ، يصرخان ، بل ويعنفان بعضهما بغير تحفظ ، كان بطرس أحمر من الغضب ، مزمجرا ، وكان يوحنا شاحبا وهادئا ، بيدين مرتجفتين وكلام لاذع ، أصبح نقاشهما بذيئا ، وأخذ المعلم يتجهم حين التفت بطرس فجأة الى يهوذا وضحك بخيلاء ، التفت يوحنا الى يهوذا وضحك أيضا ، لقد تذكر كل منهما ما قاله الاسخريوطي له ، وحين كانا يتلذذان بغبطة الظفر القريب استدعيا يهوذا بصمت ورضى ليكون حكما ، فصرخ بطرس :

ـ هيا يا يهوذا الذكي ! أخبرنا ، من سيكون الاول بجوار يسوع ، هو أم أنا ؟

ولكن يهوذا صمت وتنفس بتعب ، وسألت عيناه بطمع عيني يسوع العميقتين بهدوء عن شيء ما ،

ـ اجل ، ـ اكد يوحنا ببساطة ـ قل له من سيكون الاول بجوار يسوع ٠
ومن غير أن يرفع عينيه عن المسيح نهض يهوذا ببطء ثم اجاب بهدوء وتبجح :
ـ أنـا !
ـ خفض يسوع ناظريه ببطء ٠ ثم اخـذ الاسخريوطـي يدق صدره باصبعه الهزيلة ويكرر بمهابة وحدة :
ـ أنا ! أنا سأكون بجوار يسوع !
وخرج ٠ صمت التلاميذ مصعوقين من تصرفه الوقح ، ووحده بطرس همس ، اذ تذكر شيئا فجأة ، همس لتوما بصوت هاديء ومفاجـيء :
ـ هذا ما يفكر فيه اذا ! ٠٠ هل سمعت ؟

٥

في هذا الوقت بالذات قام يهوذا الاسخريوطي بأول خطوة حاسمه نحو الخيانة : لقد زار الكاهن الاول حنان سرا ٠ وقابله هذا بجفاف كبير ، ولكن ذلك لم يربكه ، وطالب باجراء حديث طويل ومباشر على انفراد معه ٠ وحين بقي وحده مع العجوز الجاف والصارم الذي كان ينظر اليه من تحت جفنين مترهلين ثقيلين أخبره أنه ـ يهوذا ـ انسان شريف وأصبح واحدا من تلاميذ يسوع الناصري لغاية واحدة هي أن يفضح النصاب ويضعه بين يدي القانون ٠

ـ ومن هو هذا الناصري ؟ ـ سأله حنّان باحتقار متظاهرا وكأنه يسمع اسم يسوع للمرة الاولى ٠

كذلك تظاهر يهوذا أنه يصدق ما يبديه الكاهن الاول من جهل غريب ، وحدثه بالتفصيل عن نبوءة يسوع وعجائبه وعن حقـده على الفريسيين والهيكل وعن خرقه الدائم القانون ، وأخيرا عـن رغبته في أخذ السلطة من أيدي الكهنة وخلق مملكته الخاصة ٠ وقد خلط الحقيقة بالكذب ببراعة جعلت حنان يحدق فيه باهتمام اكبـر ويقول له بكسل :

ـ كم في اليهودية من النصابين والمجانين ؟
ـ كلا · انه انسان خطير · ـ اعترض يهوذا بحرارة ـ انـه يخرق القانون · والافضل أن يهلك رجل واحد من أن يهلك شعـب بكاملـه ·
هز حنان رأسه مشجعا :
ـ ولكن عنده تلاميذ كثيرون كما يبدو ؟
ـ أجل ، كثيرون ·
ـ ولعلهم يحبونه كثيرا ؟
ـ اجل ، يقولون انهم يحبونه · يحبونه كثيرا ، اكثر مـن أنفسهم ·
ـ ولكن اذا أردنا أن نأخذه ، ألن يدافعوا عنه ؟ ألـن يقوموا بانتفاضـة ؟
ضحك يهوذا طويلا وبلؤم :
ـ هم ؟ اولئك الكلاب الجبناء الذين ما أن ينحني المرء لالتقاط حجر حتى يولوا هاربين · هم !
ـ وهل هم سيئون هكذا ؟ ـ سأل حنان ببرود ·

ـ وهل يهرب السيئون من الطيبين ، أم الطيبون من السيئين ؟ هه ! انهم طيبون ولذا سيهربون · انهم طيبون ، ولذا سيختبئون· انهم طيبون ، ولذا لن يظهروا الا حين سيكون ضروريا وضع يسوع في التابوت · وهم سيضعونه بأنفسهم ، أما أنت فما عليك الا ان تعدمه !

ـ ولكنهم يحبونه ؟ أنت نفسك قلت ·

ـ انهم يحبون معلمهم دائما ، ولكنهم يحبونه ميتا أكثر مما يحبونه حيا · حين يكون المعلم حيا يمكن أن يسألهم الدرس فيكون حالهم سيئا · أما حين يموت المعلم يصبحون أنفسهم معلمـين ويكون حال الاخرين سيئا ! هـه !

ألقى حنـان نظـرة ثاقبـة علـى الخائـن وانقبضـت شفتاه اليابستان ، ومعنى هذا أن حنان يضحك ·
ـ هل أساؤوا اليك ؟ انني أرى ذلك ·

ـ وهل يخفى عن فراستك شيء ، أيها الحكيم حنان ؟ لقد سبرت قلب يهوذا • أجل • لقد أساؤوا الى الفقير يهوذا • قالوا انه سرق منهم ثلاثة دنانير ، وكأن يهوذا ليس أشرف انسان في اسرائيل !

ثم طال الحديث عن يسوع وتلاميذه وعن أثره القاتل على شعب اسرائيل •• ولكن حنان الماكر الحذر لم يعط جوابا حاسما هذه المرة •

فهو يتتبع يسوع منذ زمن طويل ، وفي الاجتماعات السرية مع أقربائه وأصدقائه ، مع الرؤساء والصدوقيين كان قد قرر منذ وقت بعيد مصير نبي الجليل • ولكنه لم يثق بيهوذا الذي سمع عنه من قبل أنه انسان سيء وكذاب ، لم يثق بآماله الساذجة بخصوص جبن التلاميذ والشعب • كان حنان يثق بقوته ، ولكنه كان يخشى سفك الدماء ، كان يخاف العصيان المرهيب الذي يثيره بكل بساطة أورشليم الغضوب الذي لا يلين ، وكان يخاف أخيرا التدخل الصارم من قبل السلطات في روما • فالهرطقة التي ستوسعها المقاومة وتنضجها دماء الشعب الحمراء التي تهب الحياة لكل ما تقع عليه ، سوف تنمو بقوة أكبر ، وتخنق بحلقاتها المرنة حنّان والسلطة وجميع أصدقائه • وحين طرق يهوذا عليه الباب في المرة الثانية ارتعدت نفس حنان ولم يستقبله • ولكن الاسخريوطي جاءه للمرة الثالثة والرابعة ملحا كالريح التي تقرع ليلا ونهارا بابا مغلقا وتتنفس عبر ثقبه •

ـ أرى أن الحكيم حنان يخاف شيئا • ـ قال يهوذا الذي سمح له أخيرا بالدخول الى الكاهن الاول •

ـ انني من القوة بحيث لا أخاف شيئا • ـ قال يهوذا الذي سمح له أخيرا بالدخول الى الكاهن الاول •

ـ انني من القوة بحيث لا أخاف شيئا • ـ أجاب حنان بغطرسة ، فانحنى يهوذا بمذلة وبسط يده ـ ماذا تبغي ؟

ـ اريد أن أسلمكم الناصري ؟

ـ لا حاجة لنا به •

ـ لا حاجة لنا به ٠
انحنى يهوذا وانتظر مصوبا عينيه بخشوع الى الكاهن الاول ٠
ـ اذهب ٠

ـ ولكن يجب أن أجيء مرة أخرى ٠ أليس كذلك ، أيها المحترم حنـــان ؟
ـ لن يسمحوا لك بالدخول ٠ اذهب ٠

ولكن ها هو ذا يهوذا الاسخريوطي مرة بعد مرة يقرع ، فأدخلوه الى حنان البالغ من العمر عتيا ٠ جافا ومكفهرا غارقا بالافكار ٠ نظر بصمت الى الخائن وكأنه تماما يعد الشعر على رأسه المفلطحة ٠ ولكن يهوذا صمت أيضا ، وكأنه هو الاخر راح يحصي الشعرات في لحية الكاهن الاول القليلة الشائبة ٠

ـ وماذا ؟ مرة أخرى أنت هنا ؟ ـ بغطرسة قال حنان الغاضب وكأنه قد بصق على رأسه ٠
ـ أريد أن اسلمكم الناصري ٠

صمت كلاهما ؛ وتابعا يتفرس واحدهما الاخر باهتمام ٠ لكن الاسخريوطي كان ينظر بهدوء ، أما حنان فقد راح يخزه غضب هادىء ، جاف وبارد كصقيع الفجر في الشتاء ٠

ـ كم تريد مقابل يسوعك ؟
ـ وكم تدفعـــون ؟
اجاب حنان متلذذا بمهانة :
ـ أنتم جميعا عصابة نصابين ٠ ثلاثون فضة ، ذلك ما ندفع ٠

وفرح بهدوء حين رأى يهوذا وقد تململ كله ، تحرك وركض نشيطا وسريعا ، كأنما ليس له ساقان بل عشر منها ٠

ـ مقابل يسوع ؟ ثلاثون فضة ؟ ـ صرخ بصوت دهشة وحشيه افرحت حنان ٠ ـ مقابل يسوع الناصري ! وتريدون شراء يسوع بثلاثين فضة ؟ وتظنون أنهم يستطيعون بيعكـم يسوع بثلاثـين فضـــة ؟

استدار يهوذا الى الجدار بسرعة وضحك في وجهه الاكثر تسطحا رافعا يديه الطويلتين :

ـ هل تسمع ؟ ثلاثون فضة ! مقابل يسوع !

وبذلك الفرح الهادىء نفسه أجاب حنان بعدم اكتراث :

ـ اذا كنت لا تريد ، فاذهب ٠ اننا سنجد من يبيعه بسعر أرخص ٠ وتماما كتجار الثياب القديمة الذين في ساحة قذرة يتناقلون من يد الى يد ثيابا بالية رديئة ، يصرخون ، يقسمون ويتشاتمون ، دخلا في متاجرة حامية مسعورة ٠ وراح يهوذا يعد على الاصابع فضائل ذلك الذي تبيعه متلذذا بدهشة غريبة ، راكضا ، متململا ، صارخا ٠

ـ أما أنه طيب ويشفي المرضى ، فذلك لا يساوي شيئا برأيكم؟ آ٠٠ ؟ كلا ، فلتجب كرجل شريف !

ـ اذا أنت ٠٠٠ ـ حاول حنان الاعتراض وقد احمر وحمي غيظه البارد سريعا بفعل كلمات يهوذا الملتهبة ، ولكن هذا قاطعه بغير حياء :

ـ أما أنه جميل وشاب كالنرجس ، كسوسن الوديان ؟ آ ٠٠ ؟ هذا لا يساوي شيئا ؟ ربما ستقول أنه مسن ولا يصلح لشيء ، وأن يهوذا يبيعكم ديكا عتيقا ؟ آ ؟

ـ اذا أنت ٠٠٠ ـ حاول حنان أن يصرخ ، ولكن صوته الهرم تبدد أمام كلمات يهوذا اليائسة العاصفة كما تبدد الريح الوبر ٠

ـ ثلاثون فضة ! اذن فقطرة الدم لا تساوي درهما واحدا ! الدمعة لا تساوي نصف درهم ! وربع درهم للانة ! أما الصراخ ! أما التشنجات ! أما مقابل أن يتوقف قلبه ؟ أما مقابل ان تغمض عيناه ؟ هذا سدى ؟ ـ راح يهوذا يجأر وهو ينقض على الكاهن الاول غامرا اياه كله بحركة يده المجنونة وأصابعه وكلماته الملتوية ـ مقابل كل شيء ! مقابل كل شيء ! ـ لهث حنان ٠

ـ وكم سيكون ربحكتم أنتم من هذا ؟ هه ؟ تريدون أن تنهبـوا يهوذا ، ان تنتزعوا قطعة الخبز من أطفاله ؟ لا أستطيع ! سأذهب الى الساحة وأصرخ : ان حنان قد نهب يهوذا الفقير ! النجدة !

مرهقا ودائخا تماما دق حنان الارض بخفيه الرقيقتين ومسعورا لـوح بيديــه :

ـ أغرب !٠٠ أغــرب !٠٠

غير أن يهوذا انحنى فجأة بخضوع وفتح ذراعيه باذعان :

ـ ولكن اذا كنت هكذا ٠٠٠ فلماذا تغضب على الفقير يهوذا الذي يريد الخبز لاطفاله ؟ أنت أيضا عندك أطفال ، أناس شباب رائعون ٠٠٠

ـ نحن شيء اخر ٠٠٠ نحن شيء اخر ٠٠ أغرب !

ـ لكنني ٠ هل قلت انني لا أستطيع التنازل ؟ وهـل لا أصدقكم في أنه يمكن أن يجيء أحد اخر ويسلمكم يسوع مقابل خمسة عشر درهما ؟ مقابل درهمين ؟ مقابل درهم واحد ؟

وراح يهوذا ينحني أكثر فأكثر ، يتلوى ويتملق ثم وافق على المبلغ المعروض باستكانة ٠ أعطاه حنان المحمر المال بيـد مرتجفة جافة وأعرض عنه وهو يتلمظ شفتيه منتظـرا ريثما فرغ يهوذا من تجريب القطع الفضية كلها بدقها على أسنانه ٠ نادرا ما كان حنان يتلفت ولكنه يعود مرة أخرى كمن اكتوى فيرتفع رأسه نحو السقف ويلوك شفتيه بشدة ٠

ـ ما أكثر النقود الزائفة ٠ ـ أوضح يهوذا بهدوء ٠

ـ انها نقود ضحى بها أناس شرفاء للهيكل ، ـ قال حنان وقد التفت بسرعة ثم ، وبسرعة اكثر ، أدار قذاله الاصلع المتورد الى عيني يهوذا ٠

ـ لكن هل يحسن الشرفاء تمييز الزائف من الحقيقي ؟ هذا ما يحسنه النصابون وحدهم ٠

لم يأخذ يهوذا ما قبض من مال الى البيت ، بل خبأه تحـت حجر بعد أن غادر المدينة ٠ ثم عاد أدراجه بهدوء ، بخطـى ثقيلة

متباطئة كحيوان جريح يزحف ببطء الى جحره المظلم بعد معركة شرسة ومميتة • بيد أنه لم يكن ليهوذا جحر ، بل كان له بيت ، وفي هذا البيت رأى يسوع متعبا ، هزيلا ، مرهقا من الصراع المستمر مع الفريسيين وجدار الجباه البيض اللامعة المتعلمة التي تحيط به كل يوم في الهيكل ، جلس ملصقا خده بالجدار الخشن ونام بعمق ، على ما يبدو •

كانت أصوات المدينة المضطربة تعبر النافذة المفتوحة ، ووراء الجدار كان بطرس يصنع طاولة الطعام وينغم أغنية جليلية هادئة ، ولكنه لم يكن يسمع شيئا وهو يغط في نوم هادىء وعميق • وكان هذا هو من اشتره بثلاثين فضة •

اندفع يهوذا الى الامام من غير ما ضجيج ، وبحذر رقيق ، كأم تخاف أن توقظ طفلها المريض ، بذهول الوحش الزاحف من وجاره وقد خلبته فجأة زهرة بيضاء ، لمس الشعر الناعم بلطف ثم جذب يده سريعا • لمس مرة أخرى ثم خرج بدون ضجيج •

وحين خرج الى المكان الذي يقصدونه لقضاء حاجة ، بكى طويلا هناك وهو يتضور ، يتلوى ، يخدش بأظافره صدره ويعض كتفيه• راح يداعب شعرات يسوع المتخيلة ، ويهمس بهدوء شيئا رقيقا ومضحكا ، ويصرف أسنانه • ثم كف عن البكاء والانين وصريف الاسنان بغتة ، وسدر في تفكير ثقيل ، وقد لوى جانبا وجهه المبلل كانسان يسترق السمع • وكم طال وقوفه هكذا ، ثقيلا ، حازما وغريبا عن كل شيء ، كما القدر نفسه •

□

•••بحب هادئ وعناية رقيقة وحنان أحاط يهوذا يسوع التعيس في هذه الايام الاخيرة من حياته القصيرة • خجلا ومضطربا كالفتاة في حبها الاول ، فائق الحساسية والذكاء مثلها ، كان يتبين أدق رغبات يسوع المكنونة ، ويغوص في أبعد خبايا أحاسيسه ولمعات حزنه البارقة ولحظات تعبه الثقيلة • وحيثما حلت قدم يسوع ، كانت تقع على ناعم ، وحيثما توجه طرفه كان يجد طيبا • لم يكن يهوذا من قبل يحب مريم المجدلية والنساء الاخريات اللواتي كن بجانب يسوع ، كان يسخر منهن مازحا بفظاظه ويسبب لهن

اساعات صغيرة ، أما الان فقد اصبح صديقهن وحليفهن المضحك والاخرق. صار يتحدث معهن باهتمام عميق عن عادات يسوع الصغيرة اللطيفة وهو يسألهن طويلا وباصرار عن شيء واحد ، ويدس النقود خفية في أيديهن ، في راحة الكف ، وكانت أولئك النسوة يجئن بالعنبر والمر العطر الغالي الذي لشد ما أحبه يسوع ويدلكن ساقيه . كان يهوذا نفسه يشتري ، بعد متاجرة يائسة ، نبيذه غاليا ليسوع ، ثم كان يغضب كثيرا حين يشربه بطرس كله تقريبا بلا مبالاة انبان لا يعطي أهمية لغير الحكم ، وفي أورشليم الحجرية المجردة تماما تقريبا من الاشجار والازهار والخضرة كان يحصل من مكان ما على أزهار ربيعية فتية وأعشاب مخضوضرة يقدمها ليسوع من خلال تلك النسوة اياهن . هو ذاته كان يحمل على يديه - للمرة الاولى في حياته - أطفالا صغارا وقد عثر عليهم في بعض الاقنية أو في الشارع ويقبلهم قسرا عنهم كيلا يبكوا ، وكثيرا ما حدث أن يحبو فجأة نحو ركبتي يسوع الساهم شيء صغير مائل الى السواد ذو شعر أجعد وأنف وسخ ، وهو يصر على طلب الحنان . وبينما كان الاثنان يغتبطان ببعضهما كان يهوذا يتمشى جانبا بثبات كسجان صارم أدخل في الربيع فراشة الى سجين وراح الان يغمغم بتصنع ، شاكيا من الفوضى .

وفي الاماسي ، حين كان التوجس يقف مع الظلام حارسا عند الشبابيك ، كان يهوذا ببراعة يسوق حديثا عن الجليل الغريب عليه ، ولكنه الجليل الغالي على يسوع . بمياهه الرقراقة وضفافه الخضراء . وكان لا يكف عن حث بطرس الثقيل حتى تستيقظ فيه الذكريات اليابسة وتنهض أمام السمع والبصر حياة الجليل الغالية في لوحات ساطعة ، حيث كان كل شيء صاخبا ، زاهيا وكثا . باهتمام شره ، فاغرا فاه بطفولة ، ضاحكا بعينيه مسبقا ، كان يسوع يستمع الى حديثه العاصف الرنان المرح ، وكان يغرق في القهقهة أحيانا لنكاته بحيث تتوقف القصة لبضع دقائق . أما يوحنا فكان يحدث بطريقة أفضل من بطرس ، فلم يكن عنده ما هو مضحك او مفاجيء ، غير أن كل شيء كان يصبح ساهما ، غير مألوف ورائعا بحيث تترقرق الدموع في عيني يسوع فيتنهد بهدوء ، أما يهوذا فكان يدفع مريم المجدلية بخاصرتها ويهمس لها باعجاب :

ـ كيف يتحدث ! هل تسمعين ؟
ـ انني أسمع ، بالطبع ٠
ـ كلا ، الافضل أن تستمعي ٠ فأنتن ، النساء ، لا تحسن الاستماع جيدا أبدا ٠

ثم كان الجميع يتفرقون بهدوء الى النوم ، وكان يسوع يقبل يوحنا برقة وامتنان ، ويمرر يده على كتف بطرس الطويل بحنان ٠

ومن غير حسد ، باحتقـار عـادي كـان يهـوذا ينظر الى تلك المداعبات ٠ ماذا تعني كل هذه القصص ، هذه القبلات والتنهدات بالمقارنة مع ما يعرفه هو ، يهوذا الاسخريوطي ، الامغر ، اليهودي القبيح ، المولود بين الاحجار !

٦

كان يهوذا يخون يسوع بيد ، ويبحث باليد الاخرى جاهدا من أجل أن يعطل مشاريعه بالذات ٠ فلم يحاول كف يسوع عن رحلته الاخيرة الخطيرة في أورشليم كما فعلت النساء ، بل وكان ميالا الى جانب أقرباء يسوع وبعض تلاميذه الذين اعتبروا الانتصار علـى أورشليم ضروريا من أجل ظفر القضية الكامل ٠ ولكنه حذره باصرار وعناد من الاخطار ، وصور له بألوان حية حقد الفريسيين المخيـف تجاهه واستعدادهم لاقتراف جريمة وقتل نبي الجليل سرا أو علنا ٠ كان يتحدث كل يوم وكل ساعة عن هذا ، ولم يبق أحد من المؤمنين الا ووقف يهوذا أمامه رافعا اصبعا منذرا بالخطر ، وتكلم بتحذير وصرامـة :

ـ يجب الحفاظ على يسوع ! يجب الحفاظ على يسوع !
يجب الدفاع عن يسوع عندما يحين أوان ذلك ٠

ولكن هل هو ايمان التلاميذ اللامحدود بقدرة معلمهم الخارقة ، أم وعيهم أنهم على حق ، أم هو مجرد عمى ـ فقـد كانت كلمات يهوذا تقابل بابتسامة ، وكانت نصائحه اللامنتهية تثير التذمر ٠ حين حصل يهوذا على سيفين من مكان ما وجاء بهما لم يلاق ذلك

استحسانا الا من قبل مرطرس ، وحده بطرس أثنى على السيفين ويهوذا ، أما البقية فقالوا باستياء :

ـ وهل نحن محاربون علينا أن نتمنطق بالسيوف ؟ وهل يسوع قائد عسكري وليس نبيا ؟

ـ ولئن أرادوا قتله ؟

ـ لن يجرؤوا حين يرون أن الشعب كله يسير وراءه .

ـ ولئن جرؤوا ؟ ما العمل حينها ؟

تكلم يوحنا باحتقار :

ـ لكأنك الوحيد الذي يحب المعلم ، يا يهوذا ؟

تعلق يهوذا بهذه الكلمات بشراهة ، ومن غير أن يغضب شرع يتساءل على عجل ، بحرارة وبالحاح صارم :

ـ ولكنك تحبه ، أليس كذلك ؟

ولم يترك أحدا من المؤمنين الذين ترددوا على يسوع الا وكرر عليه السؤال :

ـ وهل تحبه ؟ بعمق تحبه ؟

وأجاب الجميع أنهم يحبونه .

كثيرا ما كان يتحدث مع توما رافعا اصبعه الجاف المتين ذا الظفر الطويل الوسخ ويحذره بطريقة خفيــة :

ـ انظر يا توما ، ان وقتا رهيبا يدنو . هل أنتم مستعدون له ؟ لماذا لم تأخذ السيف الذي أحضرته أنا ؟

وكان توما يجيب متعقلا :

ـ اننا أناس لم نألف التعامل مع السلاح . واذا دخلنا صراعا مع المقاتلين الرومان فسوف يصيبنا الاذى جميعا . الى جانب ذلك ، أنت لم تحضر الا سيفين ، وماذا يمكن أن نفعل بسيفين ؟

ـ يمكن الحصول علــى عــدد اخر أيضـا . يمكـن سلبهـا من المقاتلين ، ـ اعترض يهوذا فاقدا صبره ، حتى توما الجاد ابتسم عبر شاربيه المتدليين المستقيمين :

ـ آه ، يا يهوذا ، يا يهوذا ! ومن أين جئت بهذين السيفين ؟ انهما شبيهان بسيوف العساكر الرومان .

ـ لقد سرقتهما . كان في الامكان أن أسرق أيضا ، ولكنهم صرخوا هناك فهربت .

أطرق توما ثم قال بكآبة :

ـ مرة أخرى تفعل شرا يا يهوذا • لماذا تسرق ؟
ـ ولكن ليس هناك ما هو لك وما هو لغيرك !
ـ أجل • ولكنهم غدا سيسألون المقاتلين : وأيـن سيوفكم ؟ وحينئذ سيعاقبونهم بغير ذنب ؛
وفيما بعد ، عقب موت يسوع ، تذكر التلاميذ هذه الاحاديث مع يهوذا وقرروا أنه كان يريد لهم أن يهلكوا مع المعلم بدعوتـه اياهم الى صراع انتحاري وغير متكافيء • ولعنوا مرة أخرى الاسم الممقوت ليهوذا الاسخريوطي الخائن •

أما يهوذا الغاضب فكان يذهب بعد كل واحد من هذه الاحاديث الى النساء ويتباكى أمامهن • وكن يستمعن اليه راضيات • كان في حبه ليسوع أنوثة وحنان قرباه منهن وجعلاه في عيونهن بسيطا ، واضحا بل وجميلا ، مع أن بعض الاحتقار ظل يتخلل تعامله معهـن كما مـن قبـل •

ـ وهل هؤلاء بشر ؟ ـ كان يشكو من التلاميذ بمرارة ، مصوبا عينه العمياء الجامدة الى مريم بثقة • ـ انهم ليسوا بشرا ! ليس في عروقهم قطرة دم !

ـ ولكنك دائما تتحدث عن الناس بسوء ـ كانت مريم تعترض
ـ وهل تحدثت عن الناس مرة بسوء ؟ ـ كان يهوذا يبـدي تعجبه • أجل ، كنت أتحدث عنهم بسوء ، ولكن ألم يكن في وسعهم أن يكونو ا أفضل قليلا ؟ آه يا مريم ، يا مريم الغبية ، لماذا أنت لست رجلا ولا تستطيعين حمل السيف !

ـ كم هو ثقيل ، لن أستطيع رفعه ، ـ ابتسمت مريم •
ـ سترفعينه حين يكون الرجال على درجة من الرداءة • هـل أعطيت يسوع السوسنة التي عثرت عليها في الجبال ؟ لقد نهضت في الصباح الباكر بغية العثور عليها ، وكم كانت الشمس اليوم جميلة يا مريم ! هل كان مغتبطا اليوم ؟ هل ابتسم ؟

ـ أجل ، كان فرحا • لقد قـال ان رائحـة الجليل تفوح مـن الزهـرة •

ـ وأنت ، بالطبع ، لم تقولي له ان الذي جلبها هو يهوذا ، يهوذا الاسخريوطي ؟
ـ أنت الذي رجوت ألا أقول ٠

ـ كلا ، لا لزوم لذلك ، بالطبع ، لا لزوم ، ـ تنهد يهوذا ـ ولكن كان يمكن ان تثرثري ، اذ كم هن النساء ثرثارات ٠ ولكنك لم تثرثري ، كلا ؟ كنت صلبة ٠ هكذا ، هكذا يا مريم ، انك امرأة جيدة ٠ تعرفين أن لي زوجة في مكان ما ٠ كنت أود لو أنظر اليها الان : ربما هي الاخرى امرأة جيدة ٠ لا أعرف ٠ كانت تقول : يهوذا كذاب ، يهوذا شرير ، فهجرتها ٠ ولكن ربما هي امرأة خطيرة ، ألا تعرفين ؟

ـ كيف لي أن أعرف وأنا لم أر زوجتك مرة واحدة ؟
ـ هكذا ، هكذا يا مريم ٠ ولكن كيف تظنين : ثلاثون فضة ، هل هي مبلغ كبير ؟ أم غير كبير ؟
ـ أظنها مبلغ كبير ٠
ـ بالطبع ، بالطبع ٠ وكم كنت تقبضين حين كنت عاهرة ؟ خمسا أم عشرا من الفضة ؟ هل كنت غالية ؟

احمرت مريم المجدلية وخفضت رأسها بحيث غطى شعرها الذهبي المنفوش وجهها تماما ولم يعد باديا الا ذقنها البيضاء المستديرة ٠

ـ يا لك من قاس يا يهوذا ! أريد أن أنسى ذلك فتذكره أنت ٠
ـ كلا ، يا مريم فهذا ما لا يجب نسيانه ٠ لماذا ؟ دعي الاخرين ينسون أنك كنت عاهرة ، أما أنت فتذكري ٠ على الاخرين أن ينسوا ذلك بسرعة ، أما أنت فلا ٠ لماذا ؟
ـ هذا اثم ٠

ـ يهاب من لم يقترف اثما بعد ٠ أما من اقترفه فماذا يخاف ؟ وهل الميت من يخاف الموت أم الحي ؟ أما الميت فيضحك من الحي ومن خوفه ٠

بهذه الدرجة من المودة كانا يجلسان ويثرثران طوال ساعات ، هو المسن ، الجاف ، الدميم ، برأسه المفلطحة ووجهه المزدوج ، وهي الفتية ، الحيية ، الوديعة ، المفتونة بالحياة كأسطورة ، كحلم .

أما الزمن فكان ينساب بلا اكتراث ، والثلاثون الفضة راقده تحت الحجر ، ويوم الخيانة الرهيب بلا شفقة كان يقترب . لقد دخل يسوع الى القدس على حمارة ، وحياه الشعب بأصوات مبتهجه باسطا الثياب على طريقه :

ـ اوصنا ! أوصنا ! مبارك الاتي باسم الرب !

وكم كان اغتباطهم عظيما ، وكم تفجر حبهم له في الصراخ جارفا ، فبكى يسوع ، أما تلاميذه فراحوا يقولون باباء :

ـ أليس ابن الرب هذا الذي معنا ؟

وأخذوا هم أنفسهم يصرخون بظفر :

ـ أوصنا ! أوصنا ! مبارك الاتي باسم الرب !

في ذلك المساء مكثوا طويلا لا يذهبون للنوم يتذكرون اللقاء الظافر والمفرح ، وكان بطرس كمجنون ، كصريع شيطان المرح والكبرياء . كان يصيح مغطيا جميع الاحاديث بزمجرته الاسدية ، ويضحك راميا ضحكة على الرؤوس كأحجار مستديرة كبيرة ، ويقبل يوحنا ، يقبل يعقوب ، بل وقبل يهوذا . واعترف جهارا أنه كان شديد الخوف على يسوع ، أما الان فلا يخاف شيئا لانه رأى حب الشعب ليسوع . بذهول ، وهو يحرك عينه الحية الثاقبة ، راح الاسخريوطي ينظر في الجهات ، استغرق ساهما ثم عاد يسمع وينظر من جديد، بعدئذ قاد توما جانبا ، وكما لو أنه يسمره تماما الى الجدار بنظرته الحادة ، سأله في حيرة وخوف وأمل مبهم ما :

ـ توما ! وماذا ان كان على صواب ؟ اذا كانت تحت قدميه حجارة ، وتحت قدمي مجرد رمل ؟ ماذا عندئذ ؟

ـ عمن تتكلم ؟ . ـ استفسر توما .

ـ كيف يكون يهوذا الاسخريوطي اذ ذاك ؟ حينها يجب علي بالذات أن أخنقه لكي أصنع الحقيقة . من الذي يخدع يهوذا : أأنتم أم يهوذا نفسه ؟ من يخدع يهوذا ؟ مـن ؟

ـ انني لا أفهمك ، يا يهوذا ٠ انك تتكلم بغموض شديد ٠ من يخدع يهوذا ؟ من على صواب ؟
وأخذ يهوذا يهز رأسه وأعاد كالصدى :
ـ من يخدع يهوذا ؟ من على صواب ؟
وفي اليوم التالي أيضا ، استمر رنين السؤال الرهيب نفسه ، في رفع يهوذا يده باصبعها المشدودة الكبيرة ، وفي نظرته الى توما :
ـ من يخدع يهوذا ؟ من على صواب ؟
وازداد ذهوله ، بل وقلق توما عندما رن صوت يهوذا فجأة عاليا وكأنه مبتهج :

ـ حينئذ لن يكون يهوذا الاسخريوطي ٠ حينها لن يكون يسوع ٠ حينها سيكون ٠٠٠ توما ، أيها الغبي توما ! هل رغبت مرة في أن تأخذ الارض وترفعها ؟ وأن ترميها ، ربما ، بعدئذ ٠

ـ مستحيل هذا ٠ ماذا تقول يا يهوذا ؟
ـ هذا ممكن ٠ ـ قال الاسخريوطي بيقين ٠ ـ نحن سنرفعها ذات حين ، عندما تكون نائما ، أيها الغبي توما ! نم ! انني مرح يا توما ! عندما تكون نائما يعزف في أنفك مزمار جليلي ٠ نم !

ها قد تفرق المؤمنون في أورشليم واختبأوا في البيوت ، وراء الجدران ، وأصبحت وجوه المارة لغزية ٠ انطفأت البهجة ٠ وعبر شقوق ما تسربت شائعات مبهمة تنذر بالخطر ، جرب بطرس العابس السيف الذي أهداه اليه يهوذا ٠ وراح وجه المعلم يزداد كآبة وقسوة ٠ هكذا انسل الزمن سريعا ، واقترب من غير شفقة يوم الخيانة الرهيب ٠ لقد انقضت السهرة الاخيرة طافحة بالحزن والخوف المبهم ، وها قد رنت كلمات يسوع الغامضة عمن سيسلمه٠
ـ هل تعرف من سيخونه ؟ ـ تساءل توما محدقا الى يهوذا بعينيه المستقيمتين الصافيتين الشفافتين تقريبا ٠

ـ نعم ، أعرف ، ـ أجاب يهوذا الصارم الكالح ٠ ـ أنت يا توما ستخونه ٠ ولكنه نفسه لا يصدق بما تقول ! آن الاوان ! آن الاوان ! لماذا لا يدعو اليه يهوذا القوي والرائع ؟

··· أصبح الزمن الطاغي يقاس لا بالايـام بـل بالساعات المنسرية سريعا · وكان مساء ، وكانت سكينة مسائية ، وعلـى الارض تمددت ظلال طويلة · أول سهام حادة في ليل المعركة العظيمة القادم ، عندما رن صوت حزين وصارم · قال :

ـ هل تعرف الى أين أسير يا الهي ؟ انني ذاهب لكي أسلمك الى أيدي الاعداء ·

وكان صمت طويل ، سكينة المساء ، وظلال حادة وسوداء ·

ـ هل أنت صامت يا الهي ؟ هل تأمرني بالذهاب ؟

وأطبق الصمت من جديد ·

ـ اسمح لي بالبقاء · ولكنك لا تستطيع ؟ أم لا تجرؤ ؟ أم لا تـريـد ؟

وخيم الصمت الهائل من جديد كعيني الابدية ·

ـ ولكنك تعرف أنني أحبك · انك تعرف كل شيء · لمـاذا تحدق بيهوذا هكذا ؟ سر عينيك الرائعتين عظيم ، ولكن هـل ترى سري أصغر ؟ مرنـي بالبقـاء ··· ولكنك صامت ، ما تزال صامتا ؟ الهي ، الهي ، الهذا بحثت عنك عبـر الشـوق والعـذابات طوال حياتي ، بحثت ووجدتك ! اطلق حريتي · انزع عني عبئا أثقل من الجبال والرصاص · هـل ترى لا تسمـع كيف يتصـدع تحتـه صدر يهوذا الاسخريوطي ؟

وكان الصمت الاخير دون قرار كأنه نظرات الابدية ·

ـ انـنـي ذاهـب ·

هكذا كان خافتا وقع الخطى المبتعدة ، بحيـث أن السكون المسائي لم يستيقظ ، لم يصرخ ولم يبك ولم يبعث رنة هادئة من زجاجه الرقيق · عبرت وهمدت · وأطرق السكون المسائي ، تمدد ظلالا طويلة ، أعتم ، ثم فجـأة تنهـد كله كحفيف أوراق شجر تدافعت بسأم ، تنهد وتجمد وهو يلاقي الليل ·

تشابكت أصوات أخرى ، ضجت وقرقعت تماما كما لو أن أحدا فك كيسا مليئا بأصوات رنانة حية راحت تتساقط مـن هناك

الى الارض واحدا ثم اثنين ثم كدسا كاملا • هذا ما قاله التلاميذ • ورعد صوت بطرس حازما آمرا يغطي الجميع ، يتصادم بالاشجار والجدران ، يتساقط على ذاته ، وهو يقسم أنه لن يتخلى عن المعلم أبدا •

ـ يا الهي ! ـ كان يقول بغيظ وأسى ـ يا الهي ! انني مستعدة للذهاب معك الى السجن والى الموت •

وبهدوء ، كصدى ناعم لخطوات ابتعدت ، رن جواب لا يرحم :

ـ أقول لك ، يا بطرس ، لن يصيح الديك اليوم ، حتى تنكرني ثلاث مرات •

٧

كان القمر قد نهض حين عزم يسوع على السير الى جبل الزيتون ، حيث أمضى لياليه الاخيرة كلها • ولكن ابطاءه كان مبهما • وراح التلاميذ المستعدون للانطلاق يستعجلونه ، فقال على حين غرة :

ـ من له كيس فليأخذه ومزود كذلك ، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفا • الحق أقول لكم : ينبغي أن يتم في هذا المكتوب « ستكون لي مع الاشرار جولة » • انني ماض كما هو محتوم : « جولة مع الاشرار » •

تعجب التلاميذ ونظروا بعضهم الى بعض بحيرة • أما بطرس فأجاب :

ـ الهي ! ها هنا سيفان •

فنظر متفرسا الى وجوههم الطيبة ثم خفض رأسه وقال بهدوء :

ـ يكفي •

ترامت خطى الماشين رنانة عبر الشوارع الضيقة، وخاف التلاميذ من صوت خطاهم ، وعلى جدار أبيض أضاءه القمر تنامت ظلالهم

السوداء ، ومن ظلالهم خافوا ٠ ساروا بصمت عبر أورشليم النائمة ، وها هم قد تجاوزوا بوابة المدينة ، وفي وهدة عميقة لاح لهم مسيل أشجار الارز ٠ كانوا يخافون من كل شيء ٠ خيل اليهم أن الخرير اللطيف وبريق الماء على الاحجار أصوات أناس يتسللون ، وأقلقتهم بتداخلها ظلال مشوهة ألقتها الصخور والاشجار التي اعترضت طريقهم ، وتراءى لهم جمودها الليلي حركة ٠ غير أنهم كانوا يزدادون جرأة كلما تقدموا صاعدين الجبل واقتربوا من بستان جشيماني ، حيث أمضوا ليالي كثيرة بأمان وسكينة ٠ كانوا يتحدثون فيما بينم عن الخوف الذي مضى وهم يتلفتون احيانا نادرة الى أورشليم التي تركوها مكللة بالبياض تحت القمر ، وأولئك الذين ساروا في المؤخرة كانوا يسمعون كلمات يسوع الهادئة تتناثر ٠ كان يقول ان الجميع سيتخلون عنه ٠

في البستان ، في أوله ، توقفوا ٠ ظل القسم الاكبر منهم في مكانه ، وراحوا يستعدون للنوم بهمس خافت ، يفرشون عباءاتهم على نسيج شفاف من الظلال ومن ضوء القمر ٠ أما يسوع المثقل بالقلق ، وأربعة من تلاميذه المقربين اليه ، فقد ساروا قدما الى عمق البستان ٠ هناك جلسوا على الارض التي لم تكن قد بردت بعد من قيظ النهار ، وبينما كان يسوع صامتا ، تبادل بطرس ويوحنا بكسل كلمات تكاد تكون مجردة من المعنى ٠ وتحدثا ، وهما يتثاءبان من التعب ، عن شدة برودة الليل وعن غلاء اللحم في أورشليم ، أما السمك فلا سبيل للحصول عليه اطلاقا ٠ حاولا أن يحددا برقم دقيق عدد الحجاج العازمين على السفر الى المدينة في العيد ، فقال بطرس ، وهو يمط كلماته بتثاؤب صاخب ، انهم عشرون ألفا ، بينما أكد يوحنا وأخوه يعقوب بكسل أيضا أنهم لا يزيدون عن العشرة ٠ وفجأة هب يسوع ناهضا بسرعة :

ـ أن في نفسي حزنا مميتا ٠ امكثوا هنا واسهروا ٠ قال وابتعد بخطى سريعة الى الحرش ، وسرعان ما اختفى في سكون الظلال والنور ٠

ـ اين ذهب ؟٠ قال يوحنا مستندا الى كوعه ٠ أدار بطرس رأسه ناحية يسوع الذي غاب ، وقال :

ـ لا أعـرف ٠

ثم تثاءب بصخب مرة أخرى وانقلب على ظهره وخمد ٠ كذلك خمد الاخرون وغمر أجسامهـم الهامـدة سبات عميـق بعـد اعياء حقيقي ٠ ومن خلل السهاد الثقيل شاهد بطرس بابهام شيئا أبيض منحنيا فوقه ، ثم انبعث صوت وانطفأ من غير أن يترك أثرا في وعيه المكفهـر ٠

ـ سمعان ، هل أنت نائم ؟

وغفا مرة أخرى ، ثم مس سمعه صوت رخيم من جديد وانطفأ من غير أن يخلف أثرا :

ـ ألم تستطيعوا أن تسهروا معي ساعة واحدة ؟

« الهي ، لو تعرف كم أريد أن أنام » ، فكر وهو بين النـوم واليقظة ، ولكن تبدى له أنه قال ذلك بصوت عـال ٠ وغفا مـرة أخرى ، وكأن زمنا طويلا قد مر عندما انتصبت قامة يسوع بجانبه على حين غرة ، وبلحظة أيقظه والاخرين صوت قوي منبه :

ـ أما زلتم غارقين في النوم ؟ بالطبع ، لقـد جاءت الساعة وها هو ابن الانسان يسلم للخطاة ٠

نهض التلاميذ على أقدامهم سريعا وانهمكوا يلمون عباءاتهم ذاهلين يرتجفون من بـرودة الاستيقـاظ المباغـت ٠ كانت جموع المحاربين وكتبة الهيكل يقتربون مـن خلـل أكمـة الاشجار وهم يضيئونها بنار المشاعل المتراكضة ، يبعثون وقع اقدام وضوضاء ، عبر قعقعة السلاح وتقصف الاغصان المتكسرة ٠ ومن الجانب الاخـر تراكض التلاميذ المرتعشون من البرد بوجوه مرتاعة نعسة ، ومـن غير أن يعوا شيئا بعد ، تساءلوا على عجل :

ـ ما هذا ؟ من هم حملة المشاعل هؤلاء ؟

أما توما الشاحب ذو الشارب الاشعث المستقيم ، فكان مقرورا تصطك أسنانه ، وقال لبطرس :

ـ يبدو أنهم جاؤوا في طلبنا ٠

هو ذا حشد المقاتلين يحيط بهم ، ولمعان نار دخاني مضطـرب قد أبعد اشراقة القمر عبر الجهات ونحو الاعلـى • كان يهـوذا الاسخريوطي في مقدمة المحاربين يسير على عجل ، وبحـدة يجول بعينه الحية بحثا عن يسوع • عثر عليه وتوقف بنظرة للحظة على قامته النحيلة السامقة ثم همس للخدم بسرعة قائلا :

ـ الذي أقبله هو هو • أمسكوه وامضوا به بحرص • بحرص ، هل تسمعـون ؟

تقدم بعدئذ بسرعة صوب يسوع الذي انتظره صامتا ، وغرس كالسكين نظرته الحادة المستقيمة في عينيه الهادئتين المعتمتين :

ـ افرح ، أيها المعلم !

قال بصوت عال ، مضمنا كلمات التحية العادية معنى رهيبا ومتوعدا •

ولكن يسوع ظل صامتا ، وبرعب حدق التلاميذ بالخائن ، غـير واعين كيف يمكن للنفس البشرية أن تستوعب هذا الشر كله • ألقى الاسخريوطي نظرة سريعة على صفوفهم المتململة ، لاحظ البلبله التي كانت على وشك أن تتحول الى رعشة رعب عالية الخفقان ، لاحظ الشحوب والبسمات الخاوية وحركات الايدي الذابلة وكأنهـا موثوقة بحديد في زنودها ـ واشتعل في قلبه كمد قاتل شبيه بالكمد الذي عاناه يسوع امام هذا • اشرأب وفيه مائة وتر رنان وناشج بصوت عال ، واندفع بسرعة الى المسيح ، فطبع قبلة رقيقة علـى خده البارد • بدرجة من الهدوء ، بدرجة من الرقة ، بدرجة من التـوق والحب المضني ، بحيث لو كان يسوع زهرة على ساق رقيقة لما هزته هذه القبلة ولما أيقظت من على بتلاتها النقية قطرة ندى لؤلؤية •

ـ يا يهوذا ، ـ قال وأضاء ببريق نظرته تلك الكومة المروعـة من الظلال المتيقظة التي كانتها روح الاسخريوطي ـ يا يهـوذا ! أبقبلة تسلم ابن الانسان ؟

ورأى كيف ارتعشـت هـذه الفوضـى المروعـة كلها وأخذتها الحركة • وقف يهوذا الاسخريوطي صامتـا ، واجمـا ، كالموت في

هيبته المتغطرسة ، بينما كان كل شيء في داخله يئن ويهدر ويجأر بألف صوت ناري شرس :

« أجل ! بقبلة الحب نسلمك • بقبلة الحب نسلمك للتدنيس ، للتعذيب ، للموت ! بصوت الحب ندعو الجلادين من الاوكار المظلمة ونضع الصليب وعاليا فوق ظلام الارض الدامس نرفع على الصليب حبا مصلوبا بالحب » •

هكذا وقف يهوذا الواجم والبارد ، كالموت ، بينما كان الصراخ والضجيج المرتفعان حول يسوع يجيبان صرخة روحه • بتردد قوة مسلحة فقط ، وبارتباك هدف مبهم ، أخذه الجنود من يديه وجروه الى مكان ما ، معتبرين ترددهم مقاومة ، ورعبهم سخرية منهم واستهزاء • تزاحم التلاميذ كحفنة حملان مذعورة ، لم يعارضوا شيئا ، ولكنهم أعاقوا الجميع ، بل وأعاقوا أنفسهم ، قليلون قرروا السير والعمل بمعزل عن الاخرين • استل بطرس سيفه من غمده بصعوبة وهو محاط بالزحمة من كل صوب وفاقد جميع قواه تماما ، وخائرا أنزل به ضربة مائلة على رأس واحد من الخدم ، ولكنه لم يسبب له ضررا • وحين لاحظ يسوع ذلك أمره بالقاء السيف العديم النفع ، فصلصل ساقطا تحت قدميه حديدا مجردا على ما يبدو من القدرة على الطعن والقتل بحيث لم يخطر لاحد أن يرفعه • وظل هكذا مطروحا تحت الاقدام الى أن عثر عليه في المكان نفسه بعد أيام كثيرة أطفال يلعبون فجعلوا منه تسلية لهم •

كان الجنود يفرقون التلاميذ ، فيتجمع هؤلاء من جديد ويتسللون ببلاهة بين الارجل ، واستمر الامر الى أن استبد بالجنود غيظ مجبول بالاحتقار • هوذا أحدهم قطب حاجبيه وتقدم صوب يوحنا الذي كان يصرخ ، وبفظاعة دفع اخر عن كتفه يد توما الذي كان يحاول اقناعه بشيء ما ، وأدنى قبضته الضخمة حتى كادت تلامس عينيه المستقيمتين الصافيتين ، فولى يوحنا راكضا ، وهرب توما ويعقوب ، وجميع التلاميذ الذين كانوا هنا ولوا راكضين تاركين يسوع • هرعوا الى الجبال يطاردهم الذعر ، فاقدين عباءاتهم ، مصطدمين بالاشجار ، متعثرين بالاحجار ومتساقطين ، وفي سكون الليلة المقمرة

كانت الارض تصفر برنين تحت وقع أقدام كثيرة العدد · وهب مجهول من نومه لتوه على ما يبدو ، لانه كان لابسا ازارا على عريه ، وراح يسعى متهيجا بين حشد العسكر والخدم · ولكن حين أرادوا توقيفه وأمسكوا بالازار صرخ مذعورا وأسلم ساقيه للريح ، كالاخرين ، تاركا ازاره بين أيدي الجنود · وهكذا هرب عريانا تماما ، يركض بقفزات يائسة ، يلتمع جسده العريان بغرابة تحت القمر ·

حين قادوا يسوع خرج بطرس المختبىء من وراء الاشجار ، ولما رأى انسانا اخر امامه يسير صامتا ظن أنه يوحنا فناداه بهدوء :

ـ يوحنا ، هذا أنت ؟

ـ آ ، هذا أنت يا بطرس ؟ ـ أجابه ذلك بعد أن توقف ، تعرف بطرس فيه الى الخائن من صوته · ـ ولماذا لم تهرب أنت يا بطرس مع الاخرين ؟

توقف بطرس ونطق بقرف :

ـ ابتعد عني ، أيها الشيطان !

ضحك يهوذا ، ومن غير أن يعير اهتماما بعدئذ لبطرس ، تابع طريقه الى حيث كانت تومض المشاعل باهتة وصلصلة السلاح تختلط بصوت الخطى الواضح · مضى بطرس أيضا في اثره بحذر ، ودخل كلاهما فناء رئيس الكهنة في وقت واحد تقريبا ، واختلط في حشد الخدم الذين كانوا يستدفئون حول النار · راح يهوذا بتجهم يدفيء يديه العظيمتين فوق النار وسمع كيف قال بطرس بصوت عال من ورائه :

ـ كلا ، انني لا أعرفه ·

ولكنهم ، كما يبدو ، أصروا على أنه من تلاميذ يسوع ، لان بطرس أعاد بصوت أعلى :

ـ لا ، لا ، انني لا أفهم ما تقولون !

ابتسم يهوذا عن غير ارادة ، ودون أن يلتفت هز رأسه تأكيدا وغمغم :

ـ هكذا ، هكذا ، يا بطرس ! لا تتخل لاحد عن مكانك بمحاذاة يسوع !

ولم ير كيف غادر بطرس المذعور الفناء كيلا يظهر بعد . ومنذ ذلك المساء وحتى موت يسوع لم ير يهوذا بالقرب منه أيا من التلاميذ ، وبين هذا الحشد كله كانا وحدهما : ذلك الذي أسلم للتدنيس والالام ، وذلك الذي أسلمه ، لا يفترقان حتى الموت . من كأس عذابات واحد شرب كلاهما ، كشقيقين ، المغدور والخائن ، وبالتساوي لفحت الرطوبة النارية الشفاه النظيفة والدنسة .

حدق بثبات الى لهب النار الذي يملأ العيون باحساس السخونة، ومد الى النار يديه الطويلتين الراجفتين ، وكان عديم الشكل في بلبلة الايدي والارجل والظلال المرتجفة والضياء حين غمغم الاسخريوطي بشكوى وصوت أجش :

ـ يا للبـرد ! الهي ، يا للبرد !

تماما ، ربما ، كما صيادي السمك حين يرحلون ليلا تاركين على الشاطىء نارا تترقد ، فينسل من أعماق البحر القاتمة شيء ويحبو صوب النهر ، يحدق اليها بوحشية وثبات ، يشرئب اليها بكل أعضائه ويغمغم بشكوى وصوت أجش :

ـ يا للبرد ! الهي ، يا للبرد !

وبغتة سمع يهوذا وراء ظهره انفجار أصوات عالية ، صراخ الجنود وضحكهم المترع بحنق شره ناعس ، وضربات قصيرة حادة على جسده الحي . التفت وقد اخترق الالم كل جسده وكل عظامه للحظة ، واذا بهم يضربون يسوع .

هكـذا اذن !

شاهد كيف اقتاد الجنود يسوع الى غرفة التوقيف . كان الليل ينقضي والنيران تنطفىء وتتغطى بالرماد ، بينما استمرت تترامى من غرفة التوقيف صرخات صماء وضحك وشتائم . انهم يضربون يسوع . راح الاسخريوطي يركض حثيثا في الفناء الموحش كأنه تائه تماما ، ويتوقف عن الركض ، يرفع رأسه ثم يركض من جديد ويتعثر بالنيران والجدران منذهلا . التصق بعدئذ بجدار غرفة التوقيف ، اشرأب وتعلق بالنافذة وشقوق الابواب وراح يتطلع

بنهم كي يعرف ما يجري هناك • شاهد غرفة ضيقة ، خانقة ، قذرة كجميع غرف التوقيف في العالم ، وملطخة أرضها بالبصاق ، وجدرانها دبقة ، مبقعة ، تماما كأن احدا قد مشى عليها أو تمرغ • ورأى الانسان الذي كانوا يضربونه • كانوا يضربونه على وجهه ورأسه ، يتقاذفونه كحزمة لينة ، من جهة الى أخرى ، وبما أنه لم يصرخ ولم يقاوم فقد خيل اليه حقا لدقائق ، بعد تحديق متوتر : أنه لم يكن انسانا حيا ، بل لعبة لينة خلو من العظام والدم ، وكان يتلوى بغرابة ، كاللعبة وحين كان رأسه يصطدم بأحجار الارض وهو يقع ، لم يكن هناك انطباع بأن شيئا قاسيا يصطدم بشيء قاس ، وانما شيء لين لا يحس الالم ايضا • وحين يطيل المرء النظر يصبح الامر أشبه بلهو غريب لا ينتهي ، كخدعة كاملة أحيانا • وبعد دفعة قوية واحدة ارتمى الانسان ، أو اللعبة ، بحركة سلسلة على ركبتي جندي جالس دفعه بدوره فانفتل وخر في حضن اخر ، وتكرر الامر ثانية وثانية • ارتفع ضحك قوي ، وابتسم يهوذا أيضا لكأن يدا قوية مزقت فمه بأصابع من حديد • كان هذا فم يهوذا المخدوع •

طال الليل ، والنيران ما زالت تترمد • سقط يهوذا عن الجدار وجرجر قدميه ببطء نحو واحدة من النيران ، قلب الفحم ، أصلحه ، ومع أنه لم يشعر بالبرد الان ، فقد بسط فوق النار يديه المرتجفتين قليلا • ودمدم بسأم :

ـ آه ، كم هو مؤلم ، مؤلم جدا ، يا بني ، يا بني ، يا بني • مؤلم ، مؤلم جـدا ! ••

ثم سار من جديد الى النافذة المصطبغة بصفرة ضوء باهت وراء فتحة القضبان السوداء ، وعاد ينظر كيف يضربون يسوع • مرة واحدة لاح أمام عيني يهوذا مباشرة وجهه الاسمر الذي تشوه ، عبر غابة شعره الاشعث • هي ذي يد انغرزت في ذلك الشعر ، رمت الانسان ، وراحت تمسح بوجهه الارض الملطخة بالبصاق وتقلبه بانتظام ذات اليمين وذات الشمال • كان جندي نائما تحت النافذة تماما وقد فتح فمه ذا الاسنان اللامعة البيضاء ، واذا بظهر عريض تعلوه رقبة غليظة عارية يحجب النافذة بحيث لم يعد مرئيا أي شيء • وفجأة أطبق الصمت •

ما هذا ؟ لماذا هم ساكتون ؟ لعلهم حدسوا ؟

رأس يهوذا كله ، بجميع أجزائه ، يمتلىء في الحال بعويل وصراخ ونشيج الاف الافكار المحمومة . هل حدسوا ؟ هل أدركوا أنه أفضل انسان ؟ فيا لبساطة هذا ويا لوضوحه ! ماذا هناك الان ؟ انهم يسجدون على ركبهم ويبكون بهدوء وهم يقبلون رجليه . هو ذا يخرج الى هنا ـ بينما يزحف اولئك خلفه بخضوع ، يخرج الى هنا ، الى يهوذا ، يخرج ظافرا ، مقداما ، سيد الحقيقة ، الها ...

ـ من ذا يخدع يهوذا ؟ من على صواب ؟

ولكن لا . صراخ وضجيج من جديد . مرة أخرى يضربون . لم يفهموا ، لم يحد سوا ، يضربون بقوة أكبر ، بشكل أكثر ايلاما . أما النيران فتلفظ أنفاسها ، مغطاة بالرماد ، وما يزال الدخان فوقها شفاف الزرقة كما الهواء ، والسماء ما تزال وضاءة كما القمر . انه النهار يطلع .

ـ ما هو النهار ؟ يتساءل يهوذا .
ها قد اشتعل كل شيء ، تلألأ ، صار فتيا ، والدخان في الاعلى لم يعد أزرق بل وردي . انها الشمس تبزغ .
ـ ما هي الشمس ؟ يتساءل يهوذا .

٨

كانوا يشيرون الى يهوذا بالبنان ، بعضهم باحتقار واخرون بحقد ورعب يقولون :
ـ انظروا .. هذا يهوذا الخائن !

كان ذلك بداية صيته الشائن الذي حكم به على نفسه الى الابد . ستمر الاف السنوات وتستبدل بشعوب شعوب ، غير أنها ستظل ترن في الهواء كلمات نطقها الاخيار والاشرار باحتقار ورعب .

ـ يهوذا الخائن .. يهوذا الخائن !

أما هو فكان يسمع لا مباليا بما يقولون عنه ، يستغرقه شعور الفضول الظافر المتأجج . منذ مطلع الصباح عندما نقلوا يسوع المبرح ضربا من غرفة التوقيف ويهوذا يسير خلفه ، وكان غريبا أنه لم يشعر بأس أو ألم أو فرح ، لم تراوده الا رغبة جبارة في أن يرى كل شيء ويسمع كل شيء . ومع أنه لم ينم طوال الليل ، فقد أحس جسده خفيفا ، وحين كانوا يعيقون تقدمه ويزاحمونه ، كان يشق الحشد بدفعاته وينسل حثيثا الى المقدمة ، ولم تهدأ عينه الحية السريعة دقيقة واحدة . حين قام قيافا باستجواب يسوع أسند يهوذا أذنه بيده ، كي لا تفوته كلمة واحدة ، وراح يهز رأسه مؤكدا وهو يدمدم :

ـ هكذا ! هكذا ! هل تسمع يا يسوع !

غير أنه لم يكن حرا ، كان كذبابة مربوطة بخيط : تطن وتطير بهذا الاتجاه وذاك ، ولكن الخيط المطيع والعنيد لا يبرحها دقيقة . كانت ترقد في قذال يهوذا أفكار حجرية ، وكان مربوطا اليها بشكل متين ، لكأنه لم يكن يدرك أية أفكار هذه ، لم يشأ أن يمسها ، ولكنه كان يشعر بها دائما . وكانت بين دقيقة وأخرى تتجمع عليه فجأة ، تجثم وتبدأ تضغط عليه بكل ثقلها الخارق ، تماما كقبة مغارة حجرية تهوي ببطء ورعب فوق رأسه . حينها كان يقبض على قلبه بيده ، يحاول أن يهتز كله ، كمن تجمد من البرد ، ويسرع في نقل عينيه الى مكان جديد ، ثم الى مكان جديد أيضا . ولما اخرجوا يسوع من عند قيافا ، قابل نظرته المرهفة عن كثب ، ومن غير أن يعي هز رأسه عددا من المرات بمودة :

ـ انني هنا ، يا بني ، هنا ! ـ غمغم على عجل ودفع أحد المغفلين في ظهره اذ كان واقفا على طريقه . كان الجميع الان حشدا ضخما صاخبا يتقدم من بيلاطس الى الاستجواب الاخير والمحكمة ، وبحب الفضول العارم نفسه راح يهوذا يتفحص بسرعة ونهم جميع وجوه القادمين . كان كثير منهم غرباء ، لم يرهم يهوذا أبدا ، غير أنه وقع أيضا على أولئك الذين كانوا يصرخون ليسوع :

« أوصنا ! » ـ وكأن عددهم كان يزداد مع كل خطوة .

« هكذا ، هكذا ! ـ فكر يهوذا بسرعة ، وأصاب الدوار رأسه، كالسكران • ـ انتهى كل شيء • هاهم سيصرخون : هذا يسوعنا ، ماذا تفعلون ؟ وسيفهم الجميع و ••• » •

غير أن المؤمنين ساروا صامتين • كانوا يتصنعون البسمة وكأن هذا كله لا يمسهم ، كان بعضهم يتكلم بتحفظ ، ولكن أصواتهم الضعيفة كانت تغرق في عجيج الحركة وفي صرخات أعداء يسوع الصاخبة المتشنجة • وأحس براحة من جديد • فجأة لاحظ يهوذا غير بعيد عنه توما يتسلل حذرا ، فأراد أن يقترب منه وقد ضمر شيئا بسرعة • ارتعب توما اذ رأى الخائن وأراد أن يتوارى ، الا أن يهوذا أدركه في الزقاق الضيق القذر بين جدارين :

ـ توما ! انتظر !

توقف توما ثم مد الى الامام يديه ونطق بمهابة :

ـ ابتعد عني ، أيها الشيطان •

طوح الاسخريوطي بيده مغتاظا :

ـ أي غبي أنت ، يا توما ، لقد حسبتك أذكى من الاخرين • شيطان ! شيطان ! يجب أن تبرهن هذا •

خفض توما يديه وسأل متعجبا :

ـ ألست من خان المعلم ؟ لقد رأيت بنفسي كيف اقتدت المحاربين وأشرت اليهم الى يسوع • ان لم تكن هذه خيانة ، فما الخيانة اذن ؟

ـ اخرون ، اخرون ، ـ قال يهوذا على عجل • ـ اسمع ، ان عددكم كبير هنا • يجب أن تجتمعوا سوية وتطلبوا بصوت عال : أعطونا يسوع ، انه لنا ، ولن يرفضوا طلبكم ولن يجرؤوا • هم انفسهم سيفهمون •••

ـ ماذا تقول ! ماذا تقول ، ـ طوح توما بيده حازما ، ـ ألا ترى ما أكثر الجنود المسلحين وخدم الهيكل هنا • ثم ان المحكمة لم تنعقد بعد ، وليس علينا أن نعيق المحكمة • فهي ستفهم أن يسوع بريء وتأمر باطلاقه في الحال •

ـ أنت ايضا تظن هكذا ؟ ـ تساءل يهوذا بشرود • ـ توما ، توما ـ واذا كان هذا صحيحا ؟ ماذا عندئذ ؟ من على صواب ؟ مـن خدع يهوذا ؟

ـ لقد تحدثنا اليوم طوال الليل وقررنا أن المحكمة لا يمكن أن تدين بريئا • واذا أدانت •••

ـ ماذا ! تعجل الاسخريوطي •

ـ ••• فهي ليست محكمة اذن • وسوف يكون حالهم سيئا حين يضطرون لتقديم اجابة أمام القاضي الحقيقي •

ـ أمام الحقيقي ! هناك حقيقي أيضا ! ـ ضحك يهوذا •

ـ لقد لعناك جميعنا ، ولكن ما دمت تقول انـك لست خائنا فأعتقد أنك يجب أن تحاكم •••

استدار يهوذا بنزق دون أن يستمع اليه وانطلق مسرعا يهبط الزقاق في أعقاب الحشد المبتعد • ولكنه سرعان ما أبطأ الخطى فسار متمهلا وقد فكر أنه حين يسير أناس كثيرون فانهم يسيرون ببطء دائما ، والسائر وحيدا يدركهم لا محالة •

لما اقتاد بيلاطس من قصره يسوع وقدمه الى المحكمة ، أحس يهوذا فجأة بصورة واضحة أن كل شيء قد انتهى الان ، وكـان مدفوعا الى عمود بظهور الجنود الثقيلة ، يحرك رأسه بضراوة كي يتبين شيئا من خلل خوذتين لامعتين • وتحت الشمس المرتفعة عاليا فوق رؤوس الجموع شاهد يسوع داميا ، شاحبا ، في اكليل العوسج تنغرس أشواكه في جبينه ، كان واقفا عند طـرف المنصة مرئيا كله من رأسه حتى قدميه المسفوعتين الصغيرتين ، كـان ينتظر بهدوء كبير ، وكان صافيا في طهارته وبراءته بحيث أن الاعمى الذي لا يرى الشمس ذاتها ، وحده كان لا يرى ذلك ، وحده المجنون مـا كان فهم • وكان الناس صامتين وكان سكون ، بحيـث أن يهوذا كان يسمع تنفس الجندي الواقف أمامه والصرير الخافـت الـذي يبعثه الحزام على جسده لدى كل شهيق وزفير •

« هكذا • لقد انتهى كل شيء • انهم سيفهمون الان » ، فكر يهوذا ، وفجأة أوقف قلبه شيء غريب شبيه بالفرحـة الباهرة لدى السقوط من جبل لا نهائي الارتفاع الى هوة عميقة ساطعة •

مط بيلاطس شفتيه باحتقار الى الاسفل نحو ذقنه الحليقه المستديرة ، ورمى الحشد بكلمات جافة مقتضبة ، تماما كما يرمون بالعظام الى قطيع كلاب جائعة ليخدعوا ظمأها الى دم طري ولحم حي نابض :

ـ لقد جئتموني بالانسان هذا كمفسد للناس ، وها أنذا بحضوركم قد حققت ولم أجد علة في هذا الانسان تتهمونه بها ...
أغمض يهوذا عينيه . انه ينتظر .
وصرخ الناس جميعا ، جأروا ، زعقوا بألف صوت وحشي وبشري :
ـ الموت له ! اصلبه ! اصلبه !
وها هم الناس اياهم ، وكأنهم يهزؤون من أنفسهم تماما ، يصرخون ، يجأرون ، يطلبون بألف صوت وحشي وبشري .
ـ اطلق لنا باراباس ! اصلبه ! اصلبه ! .

بيد أن الروماني لم يقل كلمته الفصل بعد . وارتعش وجهه الحليق المتغطرس بخلجات القرف والغيظ . انه يفهم . لقد فهم ! هوذا يتكلم الى خدمه بهدوء ، ولكن صوته غير مسموع في عجيج الحشد . ماذا يقول ؟ هل هو يأمرهم بأخذ السيوف وضرب هؤلاء المجانين ؟

ـ هاتوا ماء .
ماء ؟ اي ماء ؟ لماذا ؟
هو ذا يغسل يديه ـ لسبب ما يغسل يديه البيضاوين ، النظيفتين ، المزينتين بالخواتم ـ وبغيظ يصرخ ويرفعهما الى الناس الصامتين بذهول :
ـ اني بريء من دم هذا البار . فانظروا !

كان الماء ما يزال يقطر من أصابع بيلاطس على البلاط المرمري بينما انطرح شيء عند قدميه ، وراحت شفتاه الحارتان الحادتان تقبلان يده المقاومة بيأس ، تلعقانها كملمسين ، تمتصان الدم ، تعضان تقريبا . نظر بقرف ورعب نحو الاسفل فرأى جسدا كبير

يتلوى ، ووجها مزدوجا بوحشية ، وعينين ضخمتين ، لا كائنا واحدا، يتسبثون برجليه ويديه • وسمع همسا لاذعا ، متقطعا ، حارا :
ـ أنت حكيم !•• أنت كريم !•• أنت حكيم ، حكيم ! ••

واضطرم هذا الوجه المتوحش بفرح شيطاني خفا بحيث ان بيلاطس ركله برجله صارخا فسقط يهوذا على قفاه • وبينما كان راقدا على البلاط الحجري شبيها بشيطان مقلوب على ظهره ، ظل يمد يده الى بيلاطس المبتعد ، ويصيح كعاشق متيم :

ـ أنت حكيم ! •• أنت حكيم ! •• أنت كريم !

ثم هب ناهضا وركض مشيعا بضحك الجنود • اذ لم ينته كل شيء بعد • عندما يرون الصليب ، عندما يرون المسامير ، قد يفهمون ، وعندئذ ••• ماذا عندئذ ؟ وبصورة خاطفة لمح توما ذاهلا ، شاحبا ، ولسبب ما يشير له برأسه مطمئنا ، ويتبع يسوع المقود الى الموت • السير صعب ، والحصى الصغيرة تنزلق تحت القدمين، ويشعر يهوذا فجأة أنه قد تعب • كل همه أن يضع قدمه بصورة أفضل ، ويتلفت بكدر فيرى مريم المجدلية تبكي ، يرى كثيرا من النساء يبكين ـ بشعور مسبولة ، وعيون حمراء وشفاه معوجة ـ وكل الحزن اللامحدود لنفس الانثى الرقيقة عرضة للتدنيس • دب النشاط فيه بغتة ، ودنا من يسوع راكضا بعد أن تحين اللحظة المناسبة :

ـ انني معك • يهمس على عجل •
ابعده الجنود بضربات السوط ، فتلوى متحاشيا الضربات ، وراح يشرح على عجل وهو يكشر للجنود عن اسنانه :
ـ انني معك • الى هناك • هل تفهم ، الى هناك !

مسح الدم عن وجهه وهدد بقبضته جنديا التفت ضاحكا وأشار للاخرين نحوه • لسبب ما راح يبحث عن توما ، ولكن ليس بين جموع المشيعين لا توما ولا أحد من التلاميذ : شعر بالتعب من جديد ونقل قدميه بصعوبة وهو يتفحص باهتمام الاحجار الحادة البيضاء المبعثرة •

□

... عندما ارتفعت المطرقة من اجل تسمير يد يسوع اليسرى الى الخشب ، أغمض يهوذا عينيه وحبس أنفاسه دهرا كاملا ، لم يعش ، وانما كان يسمع وحسب • ولكن هو ذا صليل اصطدام الحديد بالحديد ، وضربات صماء ، قصيرة ، خفيضة تتوالى مرة اثر مرة ، يترامى الى السمع صوت دخول المسمار المدبب في الخشبة الغضة موسعا بين خلاياها ...

يد واحدة • ما زال هناك وقت •
يد أخرى • ما زال هناك وقت •

رجل ، رجل أخرى • أحقا قد انتهى كل شيء ؟ فتح عينيه بتردد ورأى كيف يرتفع الصليب مهتزا ويثبت في حفرة • رأى كيف تنبسط يدا يسوع ، وهما تتشنجان بتوتر ، متعبتين ، وتتسع الجراح • تمتد اليدان ، تمتدان ، تصبحان نحيلتين ، ثم تبيض ، تنفتل عند الكتفين وتحمر الجراح تحت المسامير ، تستطيل ، تكاد تنقطع للتو ... كلا ، قد توقفت • توقف كل شيء • وحدها الاضلاع تتحرك ، يرفعها تنفس قصير وعميق •

على ظلام الارض تماما ينتصب صليب وعليه يسوع مصلوبا • لقد تحقق كابوس الاسخريوطي وأحلامه ، انه ينهض من ركوعه الذي قام به لسبب ما ، ويتلفت حواليه ببرودة • هكذا ينظر المنتصر الصارم الذي قرر في قلبه أن يسلم للدمار والموت كل شيء ، وأن يكتنف بنظره اخر مرة المدينة الغريبة والثرية التي ما تزال حية وصاخبة ، ولكنها أضحت وهمية تحت يد الموت الباردة • رأى يهوذا زعزعة نصره المشؤوم مثلما يرى انتصاره المرعب • ولئن فهموا فجأة ؟ ما زال هناك وقت • ما زال يسوع حيا • هو ذا ينظر بعينيه المستغيثتين المكتئبتين ...

ما الذي يمنع من الانقطاع غشاوة رقيقة تغطي عيون الناس ، لدرجة من الرقة وكأنها غير موجودة أبدا ؟ لئن فهموا فجأة ؟ واذا اندفعوا الى الامام فجأة كتلة رهيبة من الرجال والنساء والاطفال صامتين ، من غير ضجيج ، يمحون الجنود ويغرقونهم بدمائهم حتى اذانهم ، يقتلعون الصليب اللعين من الارض ، وبأيدي الباقين على

قيد الحياة يرفعون عاليا يسوع الحر فوق ظلام الارض ! أوصنا . أوصنا ! أوصنا ! كلا ، خير أن يستلقي يهوذا على الارض . كلا ، خير أن يترصد ، وهو مستلق على الارض تصطك أسنانه ككلب ، الى أن ينهض كل أولئك . ولكن ما الذي جرى للزمن ؟ تارة يوشك أن يتوقف بحيث تثور رغبة في دفعه باليدين وضربه بالقدمين ، بالسوط كحمار كسول ، وتارة يندفع بجنون من جبل ما فيحبس الانفاس وعبثا تبحث اليدان عن سند . تلك مريم المجدلية تبكي . تلك والدة يسوع تبكي . دعهما تبكيان . وهل تعني دموعهما الان شيئا ، دموع جميع الامهات ، جميع النساء في العالم !

ـ ما الدموع ؟ ـ يتساءل يهوذا ، وبصورة مسعورة يدفع الزمن الساكن ، يضربه بقبضتيه ، يلعنه ، كعبد . انه غريب وهو لذلك عنيد . آه ، لو أنه ليهوذا ، ولكنه لجميع هذه النسوة الباكيات ، الضاحكات ، المثرثرات ، كما في بازار ، انه للشمس ، انه صليب وقلب يسوع الذي يموت بهذا البطء .

أي قلب خسيس يهوذا ! انه يمسكه بيده ، ولكنه يصرخ « اوصنا » بصوت من العلو يكاد يسمعه الجميع للتو . انه يضغطه على الارض ، أما هو يصرخ : « أوصنا ، أوصنا » كثرثار يبعثر في الشارع أسرارا قدسية .. اصمت ! أصمت !

فجأة بكاء عال متقطع ، صرخات صماء ، حركة عجولة نحو الصليب . ما هذا ؟ هل فهموا ؟

كلا ، ان يسوع يموت . وهل هذا ممكن ؟ أجل ، ان يسوع يموت . اليدان الشاحبتان بغير حراك ، ولكن تشنجات قصيرة تختلج في وجهه وصدره ورجليه . وهذا ممكن أيضا ؟ أجل ، انه يموت ، التنفس أندر . توقف ... كلا ، مرة أخرى ، انه يموت . التنفس أندر . توقف ... كلا ، مرة أخرى ، ما يزال يسوع على الارض . ما يزال ؟ كلا ... كلا ... كلا ... يسوع مات .

انقضى الامر . أوصنا ، أوصنا !

□

تحقق الرعب والاحلام • من ينتزع الان النصر من يدي الاسخريوطي ؟ انقضى الامر ، فلتتوافد جميع الشعوب التي على على الارض الى جلجلته ولتجأر بملايين حناجرها : « أوصنا ، أوصنا » ولتصب بحار الدم والدموع الى سفحه ـ فلن تجد الا الصليب المشين ويسوع الميت •

بهدوء وبرود يتفحص الاسخريوطي الميت ، يتوقف بنظره لبرهة على خده الذي قبله بالامس قبلة الوداع ، ويتراجع ببطء • له الان الزمن كله ، وهو يسير بلا عجل ، كل الارض له الان ، وهو يخطو بثبات ، كآمر ، كقيصر ، كما ذلك الوحيد بفرح وبلا حدود في هذا العالم •

يلاحظ أم يسوع ويقول لها بصراحة :
ـ تبكين ، ايتها الام ؟ فلتبكي ، فلتبكي ، وطويلا ستبكي معك جميع أمهات الارض • الى أن أجيء مع يسوع ونحطم الموت •

ما له ، أهو مجنون أم يهزأ ، هذا الخائن ؟ غير أنه جاد ، ووجهه صارم ، وعيناه لا تركضان بعجلة مجنونة كما في الماضي • هو ذا يتوقف ، وباهتمام بارد يتفحص الارض الصغيرة الجديدة • صغيرة صارت ، ويشعر بها كلها تحت قدميه ، ينظر الى الجبال الصغيرة التي تحمر بهدوء في آخر شعاعات الشمس ، ويشعر بالجبال تحت قدميه ، ينظر الى السماء الفاتحة عريضا فمها الازرق ، ينظر الى الشمس المستديرة الساعية بفشل كي تحرق وتعمي ، ويشعر بالسماء والشمس تحت قدميه • وحيد بفرح وبلا حدود ، أحس فخورا بعجز جميع القوى الفاعلة في العالم ، وألقى بها جميعا الى الهاوية •

ويسير قدما بخطى جبروتية هادئة • والزمن لا يمشي ، لا من الامام ولا من الخلف ، خاضعا يتحرك معه بكل ضخامته اللامرئية • انقضى الامر •

مخادعا قديما ، وهو يتنحنح ، يبتسم بتملق ، ينحني دونما نهاية ، ظهر يهوذا الخائن أمام دار الولاية • كان هذا في اليوم التالي بعد قتل يسوع، حوالي الظهيرة • كانوا هنا جميعا ، قضاته وقتلته . والعجوز الهرم حنا مع أولاده البدينين والقبيحين كأبيهم ، وقيافا المشيع بحب الرفعة ، وصهره ، وجميع أعضاء دار الولاية الاخرين الذين سرقوا أسماءهم من الذاكرة البشرية ـ الصدوقيون الاغنياء والمشهورون ، الفخورون بقوتهم ومعرفتهم للقانون • استقبلوا الخائن صامتين ، وظلت وجوههم المتغطرسة جامدة : كأن شيئا لم يدخل • وصمت أصغرهم وأخوهم الذي لم يعره الاخرون اهتماما رفع وجهه العصفوري الى الاعلى ونظر كأن شيئا لم يدخل • انحنى يهوذا محييا ، انحنى ، انحنى ، أما هم فكانوا ينظرون صامتين : لكأن الذي دخل ليس انسانا ، بل مجرد حشرة قذرة لا ترى دخلت زاحفة • غير أن يهوذا الاسخريوطي لم يكن ذلك الانسان الذي يرتبك : كانوا صامتين ، أما هو فراح ينحني ويفكر أنه اذا اضطر أن يستمر حتى المساء فسوف ينحني حتى المساء •

أخيرا سأله قيافا الملول :

ـ ماذا تريد ؟

انحنى يهوذا مرة أخرى وقال بصوت عال :

ـ هذا أنا ، يهوذا الاسخريوطي ، الذي سلمكم يسوع الناصري •

ـ وماذا ؟ لقد نلت جزاءك • اغرب ! أمره حنا ، ولكن يهوذا استمر ينحني كأنه لم يسمع الامر • نظر قيافا اليه ثم سأل حنا :

ـ كم اعطيتموه ؟

ـ ثلاثين فضة •

ابتسم قيافا بسخرية ، وكذلك ابتسم حنا الشائب ، بالذات ، وانسحبت على الوجوه المتغطرسة جميعا بسمة مرحة ، أما ذلك الذي كان ذا وجه عصفوري فقد ضحك • وبينما كان يهوذا آخذا في الشحوب اسرع يقول :

ـ هكذا · هكذا · انه لقليل جدا ، بالطبع · ولكن أليس يهوذا قانعا ، هل يصرخ يهوذا بأنهم سرقوه ؟ انه قانع · ألم يسد خدمة لقضية مقدسة ؟ مقدسة · ترى ، أليس أكثر الناس حكمة يستمعون الان الى يهوذا ويفكرون : انه منا ، يهوذا الاسخريوطي ، انه اخونا ، صديقنا · يهوذا الاسخريوطي ، الخائن ؟ أليس يريد حنا أن يركع على ركبتيه ويقبل يد يهوذا ؟ الا أن يهوذا لن يسمح ، انه جبان ، انه يخشى أن يعضوه ·

قال قيافا :

ـ اطرد هذا الكلب · ما له ينبح ؟

ـ انصرف من هنا · ليس لدينا وقت لسماع ثرثرتك · قال له حنا بعدم اكتراث ·

انتصب يهوذا وأغمض عينيه · فجأة غدا التصنع ، الذي حمله بسهولة طوال حياته ، عبئا لا يطاق ؟ فرماه بحركة واحدة من رموشه · وحين نظر الى حنا مرة أخرى ، كانت نظرته بسيطة ومستقيمة ، ورهيبة في صدقها العاري · غير أنهم لم يعيروا اهتماما حتى لهذا ·

ـ تريد أن يطردوك بالعصي ؟ صرخ قيافا ·

كان يهوذا يختنق تحت ثقل الكلمات الرهيبة ، التي راح يرفعها اعلى فأعلى كي يلقيها من هناك على رؤوس القضاة ، حين سأل بصوت أجش :

ـ وهل تعرفون ··· تعرفون ··· من كان ذلك الذي ادنتموه امس وصلبتموه ؟

ـ نعرف · اغرب ·

لسوف يمزق بلكمة واحدة الان تلك الغشاوة التي تغطي عيونهم ، فترتجف الارض كلها تحت ثقل الحقيقة التي لا ترحم ؛ كانت لهم روح ، وسوف يحرمون منها ، كانت لهم حياة وسوف يخسرونها ، كان نور أمام عيونهم ، وسوف يحجبه ذعر وظلام أبدي · أوصنا ! أوصنا !

وها هي ، هذه الكلمات التي تمزق الحنجرة :

ـ لم يكن محتالا • كان بريئا ونظيفا • هـل تسمعون ؟ لقد خدعكم يهوذا • لقد سلمكم بريئا •

ينتظر • ويسمع صوت حنا هرما لا مباليا :

ـ وهذا كل ما أردت قوله ؟

ـ يبدو أنكم لم تفهموني • يقـول يهوذا باباء وهو يشحب • لقد خدعكم يهوذا • كان بريئا • لقد قتلتم بريئا •

ذو الوجه العصفوري يبتسم ، أما حنا فلا مبال ، حنا ضجر ، حنا يتثاءب • ويتثاءب تلوه قيافا ويقول باجهاد :

ـ ماذا قيل لي عن عقل يهوذا الاسخريوطي ؟ انه مجرد أحمق ، أحمق ممـل جـدا •

ـ ماذا ؟ يصرخ يهوذا وقد احتقن كله بغيظ قاتم • ومـن انتم ، ايها الاذكياء ! لقد خدعكم يهوذا ـ هل تسمعون ! لم يخنه ، بل خانكم أنتم أيها الحكماء ، أيها الاقوياء ، للموت المشين الـذي لن ينتهي أبدا • ثلاثون فضة ! هكذا ، هكذا • ولكن هذا ثمن دمكم القذر كمياه الغسيل التي تسكبها النساء وراء أبواب بيوتهن • آه ، يا حنا العجوز ، الاشيب الغبي الذي ابتلعت القانـون • لماذا لم تدفع فضة واحدة ، درهما واحدا أكثر ! فلسوف تعرف بهـذا الثمن أبد الدهر !

ـ اغرب ! صرخ قيافا المكسو بالحمرة • ولكن حنا أوقفه بحركة من يده وسأل يهوذا باللامبالاة ذاتها :

ـ والان هـل فرغت ؟

ـ انني اذا ذهبـت الى الصحـراء وناديت الوحـوش : أيتها الوحوش ، هل سمعت بكم ثمن الناس يسوعهم ، فماذا ستفعل الوحوش ؟ انها ستنسل من أوكارها وتجأر غضبا ، ستنسى ذعرها أمام الانسان وتأتي جميعها الى هنا لتأكلكم ! اذا قلت للبحـر : هل تعرف ، ايها البحر ، بكم ثمن الناس يسوعهم ؟ اذا قلت للجبال: أيتها الجبال ، هل تعرفين بكم ثمن الناس يسوعهم ؟ لسوف يترك البحر والجبال أماكنها المحدودة منذ الازل وتأتي الى هنا وتسقط على رؤوسكم !

ـ الا يريد يهوذا أن يصبح نبيا ؟ فيالعلو صوته ! علق بسخرية ذو الوجه العصفوري ونظر بتزلف الى قيافا .

ـ لقد شاهدت اليوم وجها شاحبا . كان ينظر الى الارض بذعر ويقول : أين الانسان ؟ لقد شاهدت اليوم عقربا . كان جالسا على حجر يضحك ويقول : أين الانسان ، اخبروني ، انني لا أدري ؛ أم أن يهوذا الاسخريوطي قد أصيب بالعمى ، يهوذا الاسخريوطي الفقير !

وبكى الاسخريوطي بصوت عال . كان في هذه الدقائق شبيها بمجنون ، وطوح قيافا بيده باحتقار مستديرا . أما حنا ففكر قليلا ثم قال :

ـ أرى ، يا يهوذا ، أنك حقا قد قبضت قليلا وهذا يقلقك . اليك نقودا أخرى ، خذها واعطها لاولادك .

ألقى بشيء قرقع بحدة . وما أن خفت هذا الصوت حتى تبعه بغرابة صوت شبيه اخر : انه يهوذا يلقي جفنة الفضة والدراهم في وجوه رئيس الكهنة والقضاة معيدا ثمن يسوع . تطايرت النقود كمطر مائل متساقطة على الوجوه والطاولة ومتدحرجة على الارض . احتمى بعض القضاة بأيد أكفها مشرعة . بينما قفز اخرون من امكنتهم يصرخون ويشتمون . حاول يهوذا أن يصيب حنا فرماه باخر قطعة نقدية كانت يده المرتجفة قد بحثت عنها في الكيس طويلا ، ثم بصق وخرج حانقا .

ـ هكذا ، هكذا ـ دمدم يهوذا ، وهو يعبر الشوارع مسرعا ويخيف الاطفال . ـ يبدو أنك بكيت ، يا يهوذا ؟ هل قيافا على حق فعلا اذ يقول أن يهوذا الاسخريوطي غبي ؟ من يبكي في يوم الثأر العظيم ليس جديرا به . هل تعرف هذا يا يهوذا ؟ لا تدع عيناك تخدعانك ، لا تدع قلبك يكذب ، لا نغمر النار بالدموع ، يا يهوذا الاسخريوطي !

كان تلاميذ يسوع جالسين في صمت كئيب يسترقون السمع الى ما يجري خارج البيت . كان ما يزال هناك خطر من أن ثأر أعداء

يسوع لن يقتصر عليه وحده ، وانتظر الجميع تدخل الحرس ، بل ربما واعدامات جديدة • بمحاذاة يوحنا ، الذي كان موت يسوع ثقيلا عليه بشكل خاص باعتباره أحب تلاميذه ، كانت تجلس مريم المجدلية وماتفي يواسيانه بصوت خفيض • كانت مريم ذات الوجه المنتفخ من الدموع تداعب بهدوء شعره الاجعد المنفوش ، بينما يقول له ماتفي واعظا كلمات سليمان :

ـ الصابر خير من الشجاع ، ومن يتمالك نفسه خير من فاتح مدينة •

دخل يهوذا الاسخريوطي في هذه اللحظة وأغلق الباب بضجيج• نهض الجميع فزعين ، حتى انهم لم يفهموا في البداية من الداخل ، وحين تبصروا بالوجه المكروه والرأس المفلطح الاحمر ، رفعوا أصواتهم بالصراخ • فقد رفع بطرس كلتا يديه وصرخ :

ـ اخرج من هنا ، أيها الخائن ! أخرج ، والا قتلتك ! غير أنهم أمعنوا النظر بشكل أفضل الى وجه الخائن وعينيه ثم صمتوا وهم يهمسون بفزع :

ـ دعوه ! دعوه ! لقد سكنه الشيطان •

وحين خيم السكون ، صاح يهوذا بصوت عال :

ـ افرحي ، يا عيني يهوذا الاسخريوطي ! لقد شاهدتما قبل قليل القتلة الباردين ، وها هم الخونة الجبناء أمامكما الان !

أين يسوع ؟ انني اسألكم : أين يسوع ؟

كان في صوت الاسخريوطي الاجش شيء قاهر ، وأجاب توما بخضوع :

ـ انك تعرف ، يا يهوذا ، أن معلمنا قد صلب مساء أمس •

ـ كيف سمحتم بذلك ؟ أين كان حبكم ؟ أنت ، أيها التلميذ المحبوب ، أنت حجر ، أين كنتم عندما صلبوا صديقكم على الخشب ؟

ـ ماذا كان بوسعنا أن نفعل ، احكم بنفسك • فتح توما ذراعيه •

ـ انت تسأل يا توما ؟ هكذا ، هكذا ! ـ أمال يهوذا الاسخريوطي رأسه جانبا وانهال بغضب على توما فجأة : من يحب لا يسأل

ما العمل ! انه يذهب ويفعل كل شيء ، انه يبكي ، انه يعض ، انه يخنق العدو ويكسر عظامه ! من يحب ! عندما يغرق ابنــك ، هل تذهب الى المدينـــة وتسـأل المـارة : « مـاذا اعمل ؟ ان ابني يغرق ! » ـ ألا تلقي بنفسك في الماء وتغرق بجانب ابنك ، من يحب !

رد بطرس بتجهم على الكلام الغاضب الذي أطلقه يهوذا :

ـ لقد جردت السيف ، ولكنه بنفسه قال لا لزوم .

ـ لا لزوم ؟ وأطعت ؟ ـ ضحك الاسخريوطي ـ وهل يمكن ان يطاع ، يا بطرس ! وهل يفهم شيئا في الناس ، في النضال !

ـ من لا يطيعه يذهب الى نار جهنم .

ـ ولماذا لم تذهب ؟ لماذا لم تذهب ، يا بطرس ؟ نار جهنم ! وما جهنم ؟ ولنفرض أنك ذهبت فمـا حاجتك للروح ان لم تتجرأ على القائها في النار حين تشاء !

ـ اسكت صرخ يوحنا ناهضا . هـو بالذات أراد هذه التضحية وتضحيته رائعـة .

ـ وهل هناك تضحية رائعة ، ماذا تقول ، أيها التلميذ المحبب؟ حيث التضحية هناك الجلاد ، والخونة هناك ! التضحية هي آلام فرد وعار على الجميع . أيها الخونة ، أيها الخونة ، ماذا فعلتم بالارض؟ انهم ينظرون اليها الان من الاعلى والاسفل ، يقهقهون ويصيحون : انظروا الـى هذه الارض : فعليها صلبوا يسوع ! ويبصقون عليها كما أفعل أنـا !

وبصق يهوذا على الارض بغضب .

ـ لقد أخذ على نفسه اثم الناس كله . ان تضحيته رائعة ! أصر يوحنا .

ـ كلا ، أنتم الذين أخذتم على انفسكم الاثم كله . أيها التلميذ المحبـب ! أليس منـك يبتـدىء جنس الخونــة ، نـوع المتخاذلين والكذابين ؟ أيها العميان ، مـاذا فعلتم بالارض ؟ لقـد أردتم أن تهلكوها ، وسرعان ما ستقبلون الصليب الذي رفعتم عليه يسوع ! هكذا ، هكذا . بتقبيل الصليب يعدكم يهوذا !

ـ لا توجه الاهانات ، يا يهوذا ! ـ زمجر بطرس محمرا ـ كيف نستطيع قتل جميع أعدائه ؟ ما أكثرهم !

ـ وأنت ، يا بطرس ! ـ صاح يوحنا محتدما • ألا ترى أن شيطانا سكنه ، ابتعد عنا أيها الغاوي • انك مليء بالكذب ! فالمعلم لم يأمر بالقتـل •

ـ وهل تراه حظر عليكم الموت ؟ لماذا أنتم أحياء بينما هـو ميت ؟ لماذا أقدامكم تسير ، ولسانكم يثرثر تفاهة ، وعيونكم ترف، بينما هو ميت ، جامد ، أصم ؟ كيـف تجـروء وجنتاك أن تكونـا حمراوين ، يا يوحنا ، بينما وجنتاه شاحبتان ؟ كيف تجرؤ علـى الصراخ يا بطرس ، بينما هو صامت ؟ تسألون يهوذا ، ما العمل ؟ ويهوذا يجيبكم ، يهوذا الاسخريوطي الرائع الجريء : المـوت • كان عليكم أن تتساقطوا على الطريق ، ان تخطفوا السيوف وتقبضوا على أيدي الجنود • أن تغرقوهم في بحر دمائكم • أن تموتوا ، أن تموتوا ! وليصرخ أبوه ذاته اذ ذاك رعبا ، عندما تدخلون جميعا الى هناك !

صمت يهوذا وقد رفع يده ، وفجأة لاحظ علـى الطاولة بقايا طعام • وباندهاش غريب ، بفضول ، كأنه يرى الطعام اول مـرة في حياته ، ألقى يهوذا عليه نظرة وسأل ببطء :

ـ ما هذا ؟ هل اكلتم ؟ لعلكم نمتم ايضا ؟

ـ لقد نمت أنا ـ أجاب بطرس خافضا رأسه بحياء ، وقـد احس في يهوذا انسانا يستطيع أن يأمر • نمت وأكلت •

وقال توما بحزم وتأكيـد :

ـ هذا كله غير صحيح ، يا يهوذا • فكر : لو مات الجميع فمن ذا كان سيحدث عن يسوع ؟ من كان سيحمل الى الناس تعاليمه ، لو مات الجميع : بطرس ، ويوحنا ، وأنا ؟

ـ وما هي الحقيقة ذاتها على شفاه الخونة ؟ ألا تغدو كذبا ؟ توما ، يا توما ، أتراك لا تفهم أنك الان مجرد حارس عند نعش

الحقيقة الميتة • يغفو الحارس ويجيء اللص فيأخذ الحقيقة معه ، ـ قل أين الحقيقة ؟ عليك اللعنة ، يا توما ! ستكون عقيما وفقيرا الى الابد ، وأنتم معه أيها الملعونون !

ـ عليك اللعنة أنت ، أيها الشيطان ! صاح يوحنا ، وردد صيحة يعقوب وماتفي وجميع التلاميذ الاخرين • وحده بطرس ظل صامتا •

ـ انني ذاهب اليه ! قال يهوذا باسطا يده الامرة عاليا • من يتبع الاسخريوطي الى يسوع ؟

ـ أنا معك ! صرخ بطرس ناهضا • غير أن يوحنا واخرون أوقفوه برعب قائلين :

ـ أيها المجنون ! لقد نسيت أنه خان المعلم وسلمه للاعداء !

ضرب بطرس صدره بقبضته وبكى بمرارة :

ـ الى أين أذهب ! يا الهي ! الى أين أذهب !

□

كان يهوذا منذ زمن بعيد ، في اثناء نزهاته وحيدا ، قد لاحظ المكان الذي سيقتل فيه نفسه بعد موت يسوع • كان ذلك على جبل عال فوق أورشليم ، وكانت تنتصب هناك شجرة وحيدة ، عوجاء ، نصف يابسة ، أنهكتها الريح التي تعصف بها من كل صوب • كان واحد من أغصانها العوجاء المحطمة يمتد نحو أورشليم كأنما يباركها أو يهددها بشيء ما ، وقد اصطفاه يهوذا ليجعل عليه انشوطة • ولكن السير الى الشجرة كان بعيدا وصعبا ، ولشد ما كان يهوذا الاسخريوطي تعبا • فقد تناثرت تحت قدميه جميع تلك الحصى الحادة كأنما تشده الى الخلف ، وكان الجبل عاليا ، ملفوحا بالريح ، متجهما وغاضبا • وقد جلس يهوذا مرارا ليرتاح ، وتنفس بصعوبة ، ومن الخلف ، عبر شقوق الصخور ، كان الجبل يتنفس بردا في ظهره •

ـ أنت ايضا ، أيها اللعين ! قال يهوذا بازدراء ، وتنفس بتعب وهو يهز رأسه الذي تحجرت فيه جميع الافكار • ثم راح يرفعه فجأة ويفتح واسعا عينيه المتجمدتين ودمدم بغضب :

ـ كَلا ، انهم رديئون جدا بالنسبة ليهوذا • هل تسمع ، يا يسوع ؟ هل ستصدقني الان ؟ انني ذاهب اليك •

استقبلني بحنان ، انني تعبت • لقد تعبت جدا • سنعود سوية فيما بعد ، متعانقين كشقيقين ، الى الارض • حسنا ؟ ثم عاد يهز رأسه المتيبسة ويفتح عينيه واسعا من جديد وهو يدمدم :

ـ ولكن ، ربما ستظل تغضب على يهوذا الاسخريوطي هناك أيضا ؟ ولن تصدق ؟ وسترسلني الى الجحيم ؟ وماذا ! سأذهب الى الجحيم ! وعلى نار جحيمك سأطرق الحديد وأهدم سماءك • حسنا ؟ هل ستصدقني حينها ؟ هل ستعود معي الى الارض حينها ، يا يسوع ؟

وأخيرا وصل يهوذا الى القمة والى الشجرة العوجاء ، وهنا شرعت الريح تعذبه • ولكن حينما شتمها يهوذا أخذت تغني بلطف وهدوء ، كانت تطير باتجاه ما مودعة •

ـ حسنا ، حسنا ! أما هم فكلاب ! أجابها يهوذا وهو يصنع انشوطة • وبما أن الحبل كان يمكن أن يخدع يهوذا وينقطع ، فقد علقة فوق هوة ، بحيث اذا انقطع لاقى الموت على الاحجار لا محالة • وقبيل أن يدفع الحافة بقدمه ويتدلى حذر يهوذا الاسخريوطي يسوع مرة أخرى بعناية :

ـ الا فاستقبلني بحنان ، انني جد تعب ، يا يسوع • وقفز • توتر الحبل ولكنه لم ينقطع : لقد أصبحت رقبة يهوذا نحيلة ، بينما اسبلت يداه ورجلاه وتدلت كأنها مبلولة • لقد مات • هكذا في يومين ، واحدا تلو الاخر غادر الارض يسوع الناصري ويهوذا الاسخريوطي الخائن •

طوال الليل تأرجح يهوذا ، كثمرة مريعة فوق أورشليم ، وكانت الريح تدور به ، تارة وجهه الى المدينة وأخرى الى الصحراء ، لكأنها تريد أن تبرز يهوذا للمدينة وللصحراء • وكن حيثما استدار وجهه الذي شوهه الموت ، وعيناه الحمراوان المحتقنتان بالدم والمتساويتان

الان كشقيقين ، كانت جميعا تنظر الى السماء بثبات ٠ وفي الصباح شاهد واحد ثاقب النظر يهوذا متدليا فوق المدينة وصرخ بذعر ٠ جاء الناس وفكوه ، وحين عرفوه رموه في واد أصم كانوا يرمون اليه بالخيول الميتة والقطط والجيف الاخرى ٠

وفي ذلك المساء علم جميع المؤمنين بالموت الزؤام الذي لاقاه الخائن ، أما في اليوم التالي فقد علمت به أورشليم كلها ٠ علمت به اليهودية المحجرة ، والجليل الاخضر علم به ، وطار خبر موت الخائن من بحر الى اخر أبعد منه ، لا أسرع ولا أبطأ ، وانما مع الزمن سار ، وكما ليس للزمن نهاية ، كذلك لن يكون من نهاية للحديث عن خيانة يهوذا وموته المريع ٠ والجميع ـ من أبرار وأشرار ـ على السواء سيلعنون ذكره المشين ، وعند جميع الشعوب التي كانت ، والموجودة ، سيظل وحيدا في قسمته القاسية ـ يهوذا الاسخريوطي الخائن ٠

٢٤ شباط ١٩٠٧

كابري

من القصة التي لن تنتهي ابدا

كنت اغفو على السرير بكامل ثيابي وقد اضنتني فوضى النهار الثقيلة ، حين ايقظتني زوجتي • في يدها كانت تضطرب شمعة بدت لي في قلب الليل كشمس ساطعة • وراء الشمس اضطربت ذقن شاحبة ، واعتمت عينان ضخمتان غريبتان •

ـ هل تعلم ؟ ـ قالت لي ـ هل تعلم انهم يقيمون في شارعنا متاريس •

كان سكون ، وكنا نحدق كل في عيني الاخر مباشرة ، واحسست بوجهي يشحب •

ولت الحياة الى مكان ما ، ثم عادت ثانية بخفقان قلب صاخب• كان هدوء وضوء شمعة يخفق صغيرا ، باهتا ، ولكنه حاد كسيف مقـوس •

سألتها : هـل انت خائفة ؟

ارتجفت الذقن الشاحبة ، ولكن العينين ظلتا ثابتتين تنظران الي لا ترفان • الان فقط رأيت كم هما رهيبتان • منذ عشر سنوات وانا انظر اليهما واعرفهما افضل من معرفتي بعينـي ، اما الان ففيهما جديد لا احسن تسميته • لكنت أسميته كبرياء ، ولكنه كان شيئا آخر ، جديدا ، جديدا تماما • اخذت يدها ، كانت بـاردة ، فاجابتني بمصافحة قوية كان فيها جديد لا اعرفه • لم يسبق ان شدت على يدي هكذا من قبل قط •

سألتها :

ـ منذ وقت طويل ؟

ـ منذ قرابة ساعة • وقد ذهب اخوك ايضا • لعله خشـي ان تمنعه فذهب دون ضجيج • ولكنني رأيته ؛

اذن انها حقيقة : لقد جاء (١) •

---

(١) يستعمل الكاتب ضميرا لا ينتمي للتذكير او التأنيث بل للحالة الوسط . وهذا « الهو » ليس الا المجهول ، وتحديدا هنا هو الثورة (المترجم) .

نهضت ، ولسبب ما غسلت وجهي طويلا ، كما في الصباح ، عندما ذهبت الى العمل واضاءت لي زوجي ثم اطفأنا الشمعة واقتربنا من النافذة المطلة على الشارع ٠ كان الربيع ، كان ايار ، وعبر النافذة المفتوحة اندفع هواء لم يكن له مثيل من قبل ابدا في المدينة الضخمة القديمة ٠ منذ بضعة ايام توقفت المعامل والسكك الحديدية عن العمل ٠ والهواء المتحرر من دخان الفحم تضمخ بأريج الحقول والبساتين المزهرة والندى ربما ٠ لا اعرف انها تعبق هكذا في الليالي الربيعية ، عندما نسافر بعيدا ٠ وما من مصباح ، ما من عربة خيل ، وما من واحد من اصوات المدينة فوق الاديم الحجري اللامتناهي ٠ حقا اذا اغمضت عينيك ، امكن ان تحسبها قرية ٠ هو ذا كلب ينبح ، لم اسمع من قبل كلبا ينبح في المدينة ، فضحكت سعيدا :

ـ كلي ٠٠ اسمعي ٠
عانقتني زوجي وقالت :
ـ انهم هناك في الزاوية

انحنينا عبر النافذة ورأينا حركة هناك في العمق العاتم الشفاف ٠ كانوا يحطمون شيئا ويبنون شيئا ٠ انسل احد ما كالظل ٠ فجأة ترامى قرع فأس او مطرقة ٠ برنين ، بمرح كما في غابة ، كما على النهد ، عندما يرممون قاربا او يبنون سدا ٠ متنبئا بالعمل الفياض المرح ٠ عانقت زوجي بشدة ، اما هي فراحت تنظر فوق البيوت ، فوق الاسطحة الى الهلال الفتي الاحدب القرنين المائل للغروب ٠ كان فتيا مضحكا كصبية تحلم وتخاف ان تبوح لاحد باحلامها ، وتضيء لنفسها وحسب ٠

ـ عندما سيكتمل ٠٠٠
ـ لا لزوم ، لا لزوم ، ـ قاطعتني زوجي بخوف لا افهمه ـ لا لزوم للحديث عما سيكون ٠ لماذا ؟ هو يخاف الكلام ٠ تعال الى هنا ٠

كان في الغرفة ظلام ، وصمتنا طويلا ، لا يرى واحدنا الاخر ، ولكننا كنا نفكر بشيء واحد ٠ وعندما بدأت الكلام تبدي لي ان احدا غيري تكلم : لم اكن خائفا ، ولكن صوته كان اجش تماما كأنه يختنق من العطش ٠

ـ وكيف اذن ؟
ـ امـا هـم ؟
ـ ستبقين معهم ، اذ تكفيهم ام واحدة ٠ اما انا فلا استطيع ٠
ـ استطيع انا ؟
اعرف ، لم تتزحزح من مكانها ، ولكنني شعرت بوضوح : انها ترحل ، بعيدا هي ، بعيدا هي ٠
وخيم البرد ، ومددت يدي ، ولكنها ابعدتهما ٠
قالـت :
ـ يحدث العيد عند الناس مرة كل مائة عام ، وانت تريد ان تحرمني منه ، لماذا ؟
ـ ولكن قد يقتلونك ، واطفالنا سيهلكون ٠
ـ ستكون الحياة رحيمة بهم ٠ ولكن حتى لو هلكوا ٠٠٠

وهذا قالته هي ، زوجي ، المرأة التي عشت معها عشر سنوات، حتى الامس لم تكن تعرف شيئا اخر غير الاطفال ، وكان يملؤها الخوف عليهم ٠ حتى الامس كانت برعـب تتضيـد اشبـاح الغد الرهيبة ـ ما الذي حدث لها ؟ امس ، ـ ولكني انا ايضا نسيت ما كان بالامس ٠

ـ تريدين ان تذهبي معي ؟
ـ لا تغضب ـ حسبت اني غاضب ـ لا تغضب ٠ اليوم كانوا يدقون هناك وانت نائم ، فهمت ، فجأة فهمت ان الزوج والاولاد ، كل هذا ـ هكذا ، كل هذا ـ اني احبك كثيرا ، ـ عثرت على يدي وشدت عليها بتلك الصورة الجديدة الغريبة ـ ولكن هل تسمع انهم يدقون ،انهم يدقون وكأن جدرانا تتساقط ، تنهار ـ وهكذا برحابة وسعة وحرية ٠ الان ليل ، ويخيل الي ان عمري سبعة عشر عاما ، وانني احب احدا ما حبي الاول ، حبي الكبير اللامتناهي ٠

ـ يا له من ليل ـ قلت لها ـ لا وجود للمدينة تماما ٠ وحقا وانا نسيت كم عمـري ٠

ـ انهم يدقون ، وهذا كالموسيقى ، كالغناء الذي حلمت بـه طوال عمري ٠ وما عرفت من احببت هذا الحب المجنون الذي يجعلني ارغب بالبكاء والضحك والغناء ٠

ـ يا للرحابة ، يا للفضاء • لا تسلبني السعادة ، دعني اموت مع من يشتغل هناك ويدعو المستقبل بهذه الجرأة ويوقظ الماضي الميت في التوابيت •

ـ لا وجود للزمن •
ـ انت تقول •
ـ لا وجود للزمن • من انت ؟ انني لا اعرفك • هل انت انسان ؟
وضحكت برنين ، كما لو انها في السابعة عشرة من عمرها •
ـ اجل • وانا لم اكن اعرف هذا وهل انت انسان ايضا ؟ ما اغرب ذلك وما اجمله : انسان •

منذ وقت طويل حدث ما اكتب عنه • واولئك الذين يستسلمون الان لسبات الحياة الرمادية العميق ويموتون دون ان يستيقظوا ، اولئك لن يصدقوني : في تلك الايام لم يكن للزمن وجود • كانت الشمس تشرق وتغرب ، وعقرب الساعة يتحرك في الدائرة ، اما الزمن فلم يكن له وجود • وحدثت اشياء رائعة وعظيمة كثيرة في تلك الايام ، ولن يصدقني اولئك الذي يستسلمون الان لسبات الحياة الرمادية العميق ويموتون دون ان يستيقظوا •

قلت :
ـ يجب ان نمشي •
ـ انتظر ، سأطعمك • اذ انك لم تأكل اليوم شيئا • وانت ترى كم انا عاقلة : سأذهب غدا • سأستودع الاولاد واعثر عليك •
ـ رفيقة ! قلت •
ـ نعم ، رفيقة •

في الشبابيك المفتوحة كان ينسكب السكون وهواء الحقول واحيانا قليلة وقع فأس رنان ومرح ، اما انا فجلست الى الطاولة ورحت انظر واسمع • كل شيء كان جديدا لغزيا بحيث رغبت ان اضحك • نظرت الى الجدران ، وبدت لي شفافة • رأيت كيف كانت تنهار ، وكأنني اعانق الابدية كلها بنظرة واحدة ، ووحدي كنت ابدا وسأبقى ابدا ، سيزول كل شيء ، اما انا فسأبقى • وتبدى لي كل شيء غريبا ومضحكا ـ ك مكان مصطنعا ـ الطاولة

والطعام وكل شيء يقع خارجي • شفافا ورقيقا موجودا عن عمد وحسب ، مؤقتا وحسب •
ـ لماذا لا تأكل ؟ سألت زوجي • ابتسمت انا •
ـ الخبز ! يا لغرابة ذلك •

حدقت هي بالخبز ، بقطعة الخبز القاسية اليابسة ، واكتآب وجهها لسبب ما • على مهل أصلحت بيديها من وضع صدارة المطبخ التي ترتديها ، وهي ترمق قطعة من الخبز ، والتفتت برأسها قليلا ، قليلا تماما ، الى حيث كان الاولاد نياما •

سألتها :
ـ اهل انت مشفقة عليهم ؟
هزت رأسها دون أن تزيح نظرها عن الخبز •

ـ كلا • ولكنني كنت افكر بما كان في الحياة • بما كان من قبل • كم هو مبهم • وكل شيء ، وأجالت عينيها في الغرفة متعجبة وكأنها افاقت بعد نوم طويل ، كل شيء مبهم • لقد عشنا هنا •

ـ لقد كنت زوجي •
ـ وهناك أولادنا •
ـ هناك وراء الجدار مات أبوك •
ـ أجل • مات • مات دون أن يستيقظ •

بكت البنت الصغرى خائفة من شيء في الحلم • لكم بدت غريبة تلك الصرخة الطفولية البسيطة التي كانت تطلب حقها بالحاح ، بين هذه الجدران الوهمية ، عندما كانوا يقيمون المتاريس ، هناك ، في الاسفل ، كانت تبكي وتطالب بحقها من حنان وكلمات مضحكة ووعود تهدئها ، وسرعان ما اطمأنت •

ـ هيا ، تعال • قالت زوجي همسا •
ـ أرغب في تقبيلهم •
ـ أخشى أن توقظهم •
ـ كلا ، لا بأس •

تبين ان الابن الاكبر لم يكن غافيا ، سمع كل شيء وفهم كل شيء ، كان عمره تسع سنوات فقط ، ولكنه فهم كل شيء ، يا للنظرة العميقة والصارمة التي لاقاني بها .

ـ هل ستأخذ السلاح ؟ تساءل بجدية وتأمل .
ـ نعم سآخذه .
ـ هل هو تحت المدفأة ؟
ـ ومن اين تعرف ؟ هيا ، قبلني . هل ستتذكرني ؟
قفز من سريره بقميصه القصير ، ساخنا من النوم ، وعانق رقبتي بحرارة ، كانت يداه ساخنتين ، ما انعمهما وما الطفهما . رفعت شعره عن قذاله ، قبلت رقبته النحيلة الساخنة .
ـ هل سيقتلونك ؟ همس في اذني .
ـ كلا . سأعود .

ولكن لماذا لم يبك ؟ كان يبكي احيانا لمجرد انني اغادر البيت . ترى هل مسه ذلك ايضا ؟ م نيدري . اذ ما اكثر الاشياء الرائعة التي حدثت في تلك الايام العظيمة .

القيت نظرة على الجدران ، على الخبز ، على الشمعة التي كان لهبها ما زال يخفق واخذت يد زوجي .

ـ اذن ، الى اللقاء .
ـ نعم ، الى اللقاء

هذا وحسب . ثم ذهبت . على درجات السلم كان ظلام دامس ، وكانت تفوح رائحة وسخ قديم ، وبينما كنت اتلمس الدرجات ، محاطا بالاحجار والعتم من كل صوب ، شعرت بالجديد المجهول والمبهج ، الى حيث اسير ، شعورا هائلا مبهجا غامرا .

زهرة تحت القـدم

اسمه يورا ٠

كان قد بلغ السادسة من عمره ودخل سنته السابعة ، وكان العالم بالنسبة اليه هائلا ، حيا ، مجهولا وبديعا ٠

كان له بعض المعرفة بالسماء ، بزرقتها النهارية العميقة ، وبالسحب البيضاء الصدر ، فلا هي بالفضية ولا هي بالذهبية ، التي تسبح بهدوء ، كثيرا ما تابعها مستلقيا على ظهره بـين الاعشاب او على السطح ٠ ولكنه كان يجهل النجوم تماما ، لانه كان ينام باكرا ، كان يتذكر ويعرف جيدا نجمة واحدة ، خضراء ، ساطعة ونبيهة جدا ، تبزغ في السماء الشاحبة قبيل النوم تماما ، لكأنها الوحيدة بهذا الكبر في السماء كلها ٠

ولكنه كان يعرف الارض على افضل وجه ، في الشارع ، فـي الفناء وفي حديقة البيت على غناها اللامتناهي بالاحجار والعشب والغبار المخملي الحار ، وبذلك الوسخ المذهل ، المتنوع ، السـري والمدهش الذي لا يلاحظه الناس ابدا من علياء قاماتهم الضخمة ٠ وحين يغفو ، كان يصطحب معه ، كآخر صورة ساطعة عن اليـوم الذي عاشه ، قطعة من حجر حارة ، متشبعة بالشمس ، مصقولة ، او طبقة سميكة من الغبار الرقيق اللظى المدغدغ ٠ وحين كان يتردد مع أمه الى مركز المدينة والى شوارعها الكبيرة ، كان يتذكر على افضل وجه ، بعد العودة ، الالواح الحجرية الناعمة الواسعة ، التي تبدو ساقاه بالذات وخطواته عليها صغيرة جدا كقاربين صغيرين ، وحتى الاعداد الكبيرة من العجلات الدوارة وخطوطم الخيل لم تبق في الذاكرة كهذا المنظر الجديد للارض والممتع بشكل غير عادي ٠ وكان كل شيء هائـلا في نظـره : الاسـوار ، الاشجـار ، الكـلاب والناس ، ولكن هذا لم يكن ليدهشه على الاطلاق او يفزعه ، وانما كان يجعل كل شيء شيقا ، ويحيل الحياة الى اعجوبة غير مألوفة ٠ وطبقا لمعياره اذ ذاك ، بدت الاشياء هكذا :

الاب ـ عشرة أرشين ★ ٠

ماما ـ ثلاثة أرشين ٠
كلب الجيران الشرير ـ ثلاثون أرشينا ٠
كلبنا ـ عشرة ارشين ، كما بابا ٠
بيتنا ذو الطابق الواحد ، ولكنه عال جدا جدا ـ فرسخ ٠
المسافة بين جانبي الشارع ـ فرسخان ٠
حديقتنا والاشجار فيها ـ لا تقاس ، عالية دون نهاية ٠
المدينة ـ مليون ، ولكن مليون ماذا ؟ مجهول ٠

وكل الاشياء الباقية على هذا النحو ٠ كان يعرف أيضا أناسا كثيرين ، ضخاما وصغارا ، ولكنه كان يعرف ويقدر بشكل افضل الصغار الذين يمكن الحديث معهم عن كل شيء ، فالكبار كانوا يتصرفون بحماقة ويسألون عن اشياء مملة ، سخيفة ومعروفة للجميع ، مما اضطره ان يتصنع الحماقة ، ان يتلعثم ويجيب بسخافات ، وكان يرغب بالطبع ، ان ينصرف عنهم بالسرعة الممكنة ٠ ولكن كان فوقه ، وحوله وفيه بالذات انسانان متميزان تماما ، كبيران وصغيران في آن واحد ، ذكيان وغبيان ، قريبان وغريبان ، انهما الاب وماما ٠

لعلهما كانا انسانين جيدين جدا ، والا لما امكن ان يكونا ابا وماما ، لقد كانا في كل الحالات ، انسانين رائعين ووحيدين في نوعهما ٠ وبيقين كامل كان يمكن قول شيء واحد : الاب كبير جدا ، ذكي للغاية ، يتمتع بقدرة لا تحد ، ولهذا فهو رهيب قليلا ، ممتع التحدث معه احيانا عن الاشياء الغريبة ، بعد ان أدس يدي في كفه الكبيرة القوية الدافئة ، من اجل الاطمئنان ٠ اما ماما فليست كبيرة هكذا ، بل تكون احيانا صغيرة تماما ، هي طيبة جدا ، تقبلني برقة ، تفهم بشكل رائع ماذا يعني ان بطني تؤلمني ، يمكن ان افضي اليها وحدها بما في نفسي عندما اتعب من الحياة ، ومن اللعب ، او اصبح ضحية ظلم قاس ٠ واذا كان البكاء امام الاب

★ الارشين وحدة قياس طول قديمة (يساوي ٧١ سم) كالذراع تقريبا ٠

كريها والعناد خطيرا ، فمعها تكتسب الدموع طعما طيبا بشكل غير عادي ، وتملأ الروح بتلك الكآبة الوضاءة التي ليست في اللعب ولا في الضحك ولا حتى في قراءة اكثر الحكايات رعبا . ويجب ان اضيف ان ماما غيداء لا مثيل لها والجميع مولعون بها . وهذا ليس لانك تشعر بالفخر ، ولكن هذا سيء قليلا ايضا اذ يمكن ان يسلبوك اياها . وفي كل مرة ، عندما يثبت النظر طويلا الى ماما ، احد الرجال ، واحد من اولئك الضخام المعتنين بأنفسهم ، أشعر بالضجر والقلق ، ارغب ان اقف بينه وبين ماما ، واينما ذهبت لقضاء حاجاتك اينما كنت يشدك شيء الى الوراء .

أحيانا تنطق ماما جملة سيئة مفزعة :

ـ ما لك تعبث هنا ؟ هيا العب في غرفتك .

وعندئذ لا مفر من الخروج .

حاول أن يصطحب معه كتابا أو يجلس ليرسم ولكن حتى هذا لم يكن يساعده دائما : أحيانا تمتدحه ماما لانه يقرأ ، وأحيانا تقول مرة أخرى : الافضل ان تذهب الى غرفتك ، يورتشكا . أنظر ، ها أنت قد سكبت الماء على غطاء الطاولة من جديد ، دائما تأتي مكروها وأنت ترسم .

ثم تلومه على عناده . ولكن الاكثر سوءا هو عندما يجيء ضيف خطير ومريب في اللحظة التي يجب على يورا فيها أن يلجأ الى فراشه ، يتبدى شعور بالسكون وانطباع يوحي بأن كل شيء قد خمد : الاضواء انطفأت ، الحياة توقفت ، كل شيء يغفو ، والضيف المريب بين ان يكون قد غفا ايضا وبين ان يكون قد انصرف تماما .

في جميع هذه الحالات يشعر يورا بشيء واحد تجاه الرجال المريبين ، وان كان ذلك بابهام وانما بقوة كبيرة : يشعر انه بصورة ما بديل عن الاب الغائب . وهذا يجعله مسنا بعض الشيء (وهذا سيء بشكل ما) ، ذا مزاج كالكبار (ولكنه بالمقابل فطن للغاية) ، يجعه ذكيا ومهما . بالطبع ، هو لا يتحدث عن هذا لاحد ، لان احدا لن يفهمه ، اما في ملاطفته للاب حين يطل ، وفي جلوسه

المتعاطف على ركبتيه فيبدو انسانا ادى واجبه حتى النهاية • يحدث ان الاب لا يفهمه وبكل بساطة يصرفه ليلعب او لينام ، وعندها لا يشعر يورا بالمهانة ويخرج بسرور كبير • انه على الخصوص لا ينقصه الفهم بل ويخافه قليلا : احيانا يرفض نهائيا ان يقول لماذا بكى ، او يتصنع انه شارد ، لا يسمع ، مشغول بعمله ، اما هو فيفهم ويسمع كل شيء كأحسن ما يكون •

ولديه سر رهيب : لقد لاحظ ان هذين الانسانين الرائعين الفاتنين جدا ، الاب وماما ، يكونان واحدهما عبر الاخر تعيسين جدا • ويخفيان ذلك عن الجميع • لهذا فهو ايضا يخفي اكتشافه ويظهر امام الجميع بمظهر يوحي بأن كل شيء على ما يرام من الروعة • مرات كثيرة وقع نظره على أمه تبكي منتحية زاوية ما من غرفة الاستقبال او في غرفة النوم ، غرفته بجوار غرفة النوم ، وذات ليلة قبيل الفجر ترامى الى سمعه صوت الاب غاضبا وعاليا بشكل مخيف ، وصوت الام باكيا • ظل مستلقيا فترة طويلة كاتما أنفاسه ، ثم أحس برهبة من ذلك الحديث غير العادي في وسط الليل بحيث لم يتمالك نفسه فسأل المربية بصوت خفيض :

ـ ايتها المربية ، ماذا يقولان ؟

وبسرعة اجابته المربية بهمس خائف :

ـ نم ، نم • انهما لا يقولان شيئا •

ـ سأذهب الى سريرك •

ـ يا للعار • انت كبير وتريد ان تنام مع المربية •

ـ سأذهب اليك •

وهكذا استمرا يتخاصمان طويلا في الظلام ، بصوت مكتوم ، خائفين بشكل رهيب لسبب ما ، خشية أن يكونا مسموعين • وانتهى الامر بأن انتقل يورا الى جانب المربية ، الى فراشها الفظ ، الشائك ، ولكنه مريح ودافيء •

في الصباح كان بابا وماما مرحين جدا ، وتظاهر يورا بأنه يصدقهما ، بل لعله صدقهما بالفعل • ولكن في ذلك المساء ، وربما ليس فيه ، وانما في مساء اخر تماما ، رأى الاب يبكي • حدث الامر

هكذا : كان مارا أمام مكتب الاب ، وكان الباب نصف مفتوح ، كان مسموعا شيء ما هناك ، فنظر بهدوء ، واذا بالاب مستلقيا على بطنه بشكل غير عادي ، فوق مقعده وهو ينشج · ولم يكن هناك احد · انصرف يورا ، عبث في غرفته ثم عاد من جديد · كان باب الغرفة ما زال نصف مفتوح ، وليس هناك احد ايضا ، والاب مستمر في نشيجه العالي · لو انه بكى بصوت خفيض لامكن فهم ذلك ، ولكنه كان ينشج ويئن بحشرجة ، وكانت اسنانه تصرف بشكل رهيب · كبيرا استلقى فعمر المقعد كله بجسده ، اخفى رأسه تحت كتفيه العريضتين وراح يتنشق مخاطه من انفه المبلل بالدموع · وكان هذا عصيا على الفهم · اما على الطاولة ، على طاولته الكبيرة المزدحمة باقلام الرصاص والورق والثروات الاخرى ، فكان يشتعل مصباح ذو ضوء أحمر يبعث خيطا اسود : كان السخام يتصاعد شريطا مفلطحا اسود رماديا ويتعرج في نواح مختلفة ·

وفجأة بصوت عال ، ولكن بطريقة اخرى ، تنهد الاب وتحرك ، فابتعد يورا بهدوء · ثم عاد كل شيء كما كان دائما · وهكذا لم يعرف احد بذلك ، ولكن صورة الانسان الضخم السري والرائع ، الذي هو الاب والباكي في آن معا ، ظلت في ذاكرة يورا شيئا فظيعا وجديا للغاية · ولئن كان لا يرغب بالحديث عن غير هذا ، فقد كان عليه ان يصمت عنه كشيء مقدس ورهيب ، وان يمعن في الصمت حبا للاب · ولكن مرة اخرى كان يجب ان يحبه حبا يجعله لا يلاحظ هذا ايضا ، وان يتظاهر عموما بأن الحياة في هذه الدنيا أمر يبعث على الغبطة الكبيرة ·

وأتيح كل هذا ليورا : فلم يلاحظ الاب أنه يحبه بشكل خاص ، وان الحياة في الدنيا غبطة بالفعل ، بحيث لم تكن من حاجة للتظاهر ·

وامتدت خيوط من روحه الى كل شيء ، الى الشمس والسكين والعصا التي كان يصقلها ، الى الافاق الرائعة واللغزية المرئية من علياء السطح الحديدي ، وكان ما يزال صعبا فصل الذات عن كل شيء ليس هو · عندما فاحت رائحة العشب عبقة قوية خيل اليه

انها رائحته هو ، وعندما كان يستلقي في الفراش كان يضطجع معه في السرير الصغير ، على ما في ذلك من غرابة ، الفناء الضخم والشارع وخيوط المطر المائلة والبرك المزبدة وكل العالم الهائل الحي البديع والمجهول . هكذا كان يغفو كل شيء معه ، يستيقظ معه ، ويفتح عينيه معه . وكانت هناك واقعة مذهلة وجديرة بالتأملات العميقة : كان اذا غرز العصا مساء في مكان ما من حديقة البيت وجدها صباحا في مكانها ، واللعب المخبأة في الدرج ، في المستودع ، كانت تظل كما هي عليه ، علما بأنه مد ذلك خيم الظلام وذهب هو الى غرفته . من هنا نشأت لديه حاجة طبيعية ليخفي اثمن ما لديه تحت الوسادة : فمرة وقف هذا « الاثمن » واستلقى وهكذا كان في وسعه ان يذهب . وعموما كان مدهشا ومفرحا جدا أن المربية ايضا والبيت والشمس موجودون لا في المساء وحسب ، بل وكل يوم ، ولهذا ، حين يستيقظ ، كانت تأخذه رغبة في ان يضحك ويغني بصوت عال .

عندما كانوا يسألونه عن اسمه ، كان يجيب على عجل :

ـ يـورا .

ولكن بعضهم كانوا لا يكتفون بذلك ويطلبون اليه ان يكمل ، اذ ذاك كان بقليل من التوتر يجيب :

ـ يوري ميخائيلوفيتش .

ثم يتابع تفكيره وينطق بشكل كامل :

ـ يوري ميخائيلوفيتش بوشكاريف .

□

جاء يوم غير عادي : ماما تحتفل بعيد ميلادها . سيصل الضيوف قبيل المساء ، وستكون هناك موسيقى عسكرية . اما في حديقة البيت وعلى الشرفة الواسعة فسوف تشتعل مصابيح من شتى الالوان ، ويكون في وسعي ان اذهب الى النوم ساعة أشاء وليس في التاسعة .

استيقظ يورا ساعة كان الجميع نياما ، وسرعان ما ارتدى ملابسه بنفسه وهب ينتظر العجائب . ولكنه اندهش بشكل

كريه : فالغرف كانت ، كما في الصباح دائما ، غير مرتبة ، الطباخة والخادمة نائمتان ، والباب مقفل ، وكان صعبا ان يصدق ان الناس سيتحركون وسيركضون ، وان الغرف ستكتسي بحلة العيد • وأخذه شعور رهيب حول مصير العيد • كانت الامور في حديقة البيت اسوأ ، فالممرات لم تكنس ، ولا يتدلى مصباح واحد ، فأحس بالقلق تماما • لحسن الطالع كان الحوذي يغمين يغسل العربة في الفناء القذر ، ومع انه كثيرا ما قام بهذا العمل وكان مظهره عاديا جدا ، الا ان شيئا عيديا ما يتجلى واضحا الان في رذاذ الماء المنبعث من السطل ، وفي اليدين المعروقتين وقد ثنى عنهما كمي القميص الاحمر حتى المرفقين •

ما أن أمال يغمين نظره الى يورا حتى خيل ليورا فجأة وكأنه يلاحظ لحيته العريضة السوداء المائجة للمرة الاولى ، ففكر باجلال ان يغمين انسان محترم جدا وقال :

– مرحبا ، يغمين •

ثم جرى كل شيء بسرعة كبيرة ، وفجأة ظهر الكناس وراح يكنس الممرات ، فجأة انفتحت نافذة المطبخ وانبعثت اصوات نسائية ، فجأة قفزت الخادمة وفي يديها بساط راحت تضربه بالعصا كأنه كلب • تحرك كل شيء ، وتدفقت الاحداث دفعة واحدة وفي شتى الجهات ، باندفاع مسعور جعل اللحاق بها متعذرا • فبينما سقت المربية يورا شايا ، كانوا قد شرعوا بمد شريط للمصابيح في الحديقة ، نضدوا الاثاث كله في غرفة الاستقبال ، وبينما فعلوا ذلك كان الحوذي يغمين قد أسرج الحصان وغادر الفناء لهدف عيدي سري خاص •

وبصعوبة بالغة اتيح ليورا ان يركز اهتمامه لبعض الوقت فراح بصحبة الاب يعلق المصابيح • وكان الاب رائعا : كان يضحك ويمزح ويجلس يورا على السلم ويصعد هو درجاته المائلة المتصاعدة ، واخيرا سقطا سوية مع السلم على العشب من غير ان يلحق بهما اذى • قفز يورا واقفا ، اما الاب فاستمر مستلقيا على العشب ثانيا يديه تحت رأسه ومحدقا بعينين مكورتين في الزرقة

المشرقة اللامتناهية · وبين كان الاب متمددا على العشب بمظهر جدي بعيد عن اللهو ، كان عميق الشبه بغوليفر المشتاق لبلاده بناسها الضخام الطوال · خطر في باله مكروه ، وبغية أن يعيد الاب الى مرحه جلس يورا على ركبتيه المضمومتين وقال :

– ابي ، هل تذكر يوم كنت صغيرا ، اجلس على ركبتيك فتقذف بي كالحصان ·

وما كاد ينهي كلامه حتى كان مستلقيا على بطنه في العشب ، بعد ان ارتفع في الهواء مدفوعا بقوة بديعة · لقد قذفه الاب كالسابق · غضب يورا ، اما الاب فراح غير عابيء بغضبه يدغدغه تحت ابطيه فارغم على القهقهة ، ثم اخذه من قدميه كالخنوص ★ وحمله الى الشرفة ·

وارتعبت ماما :

– ماذا تفعل ، سيصاب رأسه بالخدر ·

وبعذ ذلك وجد يورا نفسه واقفا على رجلية احمر منبوش الشعر ، بين ان يكون تعيسا جدا وسعيدا للغاية ·

ركض النهار مسرعا كقطة امام كلب · كالمبشرين بالاحتفال العظيم القريب شرع الرسل يتوافدون حاملين الرسائل واطباق الحلوى اللذيذة الفاتنة ، ثم حضر سيدان ، فثلاثة سادة ، ثم سيدة لكأن المدينة اضطربت برمتها · راح يورا يتفحص المرسلين : اناسا غرباء من العالم الاخر ، وراح يتمشى امامهم بمظهر بسيط وأبي بليق بابن امرأة تحتفل بعيد ميلادها ، استقبل السادة ورافق اطباق الحلوى وحوالي الظهيرة كان منهكا لدرجة كره معها الحياة فجأة · تخاصم مع المربية واستلقى على وجهه في السرير ثأرا منها ، ولكنه سرعان ما غفا · أفاق وهو على الامتعاض نفسه من الحياة

★ الخنوص : صغير الخنزير ·

والرغبة بالانتقام ، ولكنه حين حدق عبر عينيه المغسولتين بالماء البارد أحس بأن العالم والحياة فاتنان حتى الاضحاك ٠

وعندما البسوه ثوبا حريريا طويلا احمر يثير حفيفا وانتمى الى العيد بجلاء ، واستقبلته على الشرفة طاولة طويلة ثلجية البياض تلمع بالاواني البلورية ، انداح يورا مرة أخرى في دوامة الاحداث الدافقـة ٠

ـ جاء الموسيقيون ٠٠ يا الهي ، جاء الموسيقيون !

صرخ يورا باحثا عن ابيه وامه او عن أحد يهتم بهذا المجيء بالجدية الملائمة ٠ كـان الاب والام جالسـين في الحديقـة ، تحت التعريشة الملفعة بالعنب البري الكثيف صامتين ، ولكن رأس الام الجميل كان مرتميا على كتف الاب الذي عانقه وظل صارما ، ولم يفرح لقدوم الموسيقيين ٠ بل ان كليهما قابل مجيئهم بـلا مبالاة عصية على الفهم تستدعي السأم ٠

على اية حال ، تحركت الام وقالت :
ـ دعني ٠ لا حاجة بي للذهاب ٠
ـ اذن فتذكري ٠ ثم نطـق الاب بشيء مبهم ولكنه انعكس في قلب يورا قلقا مضنيا ٠

ـ دعني ٠ يا للعار ٠ ضحكت الام ، وهـذا ما زاد في ازعـاج يورا ، لا سيما وان الاب لم يضحك ، بل استمر محافظا على المظهر الصارم الكئيب ذاته كمظهر غولليفر المشتاق لبلاده الأم ٠

ولكن سرعان ما طوى النسيان ذلك ، لان العيد المدهش أقبل بكل رحابة لغزيته وروعته ٠ توافد الضيوف ولم يبق مكـان حول الطاولة البيضاء التي كانت خالية قبل هنيهة ، رنت أصوات ، ضحك ، نكات مرحة ، وعزفت الموسيقى ٠ وظهر أناس مع سجائر وحديث حر مسموع في الممرات الخاليـة في الحديقة حيث كان يورا ينوس وحده من قبل متخيلا نفسه امـيرا يبحث عن ابنة الملـك النائمة ٠ استقبل يورا الضيوف الاوائل عنـد الباب الرئيسي ، تفحص كلا منهم باهتمام ، بينما اتيح له ان يتعرف على بعضهم ،

بل وان يقيم معهم صداقة في الممر من المدخل الى الطاولة ٠ هكذا تصادق مع الضابط الذي يدعى ميتينكا ٠ انسان كبير ويدعى ميتينكا ، هو بالذات قال ذلك ٠ كان مع ميتنكا سيف غليظ جلدي بارد كالافعى ، لا يجرد من غمده ، ولكن ميتنكا كان يكذب في هذا ، اذ لم يكن السيف الا مربوطا قرب المقبض بحزام فضي ، وكان يجرد بصورة رائعة وهكذا كان مغيظا ان الغبي ميتنكا عوضا عن أن يستمر في حمل السيف وضعه في الغرفة الامامية ، في الزاوية كعصا ٠ ولكن حتى في الزاوية كان السيف منتصبا بشكل متميز ، وسرعان ما كان واضحا أن ضابطا اخر جاء مع ميتنكا ، ليس غريبا ويدعى أيضا يوري ميخائيلوفيتش ، للنكتة ربما ٠ يوري ميخائيلوفيتش غير الحقيقي هذا كان قد تردد عليهم بضع مرات ٠ وذات مرة جاء ممتطيا حصانا ، ولكنه يجيء كل مرة تماما قبيل الوقت الذي يجب أن يأوي فيه يورتشكا الى النوم ٠ وكان يورتشكا يذهب الى النوم بينما يظل يوري ميخائيلوفيتش غير الحقيقي مع ماما ، وكان ذلك مقلقا ومحزنا : اذ تستطيع ماما ان تنخدع ٠ لم يكن يعبر ادنى اهتمام ليوري ميخائيلوفيتش غير الحقيقي ، والان وهو يسير الى جانب ميتنكا لم يكن يشعر بذنبه على الاطلاق ، يداعب شاربيه ويظل صامتا ٠ قبل يد ماما ، وكان هذا كريها ، ولكن الغبي ميتنكا فعل الشيء نفسه وبذلك جعل الامر عاديا ٠

ولكن الضيوف سرعان ما راحوا يتقاطرون بكمية كبيرة ، متنوعين ، كأنهم يتساقطون من السماء تماما ٠ وبعضهم تساقط على الطاولة ، والاخرون في الحديقة مباشرة ٠ فجأة ظهر في الممر بعض الطلاب والصبايا ٠ وكانت الصبايا عاديات ، بينما كانت سترات الطلاب البيضاء مثقوبة عند الجانب الايسر من اجل السيوف ، كما تبين ، اي من اجل السيوف المقوسة ٠ ولكنهم لم يصطحبوا السيوف ، كبرياء ربما ٠ كانوا جميعا متغطرسين جدا ، أما الصبايا فتدافعن الى يورا ورحن يقبلنه ثم تقدمت أجملهن ، كان اسمها نينتشكا ، وأخذت يورا الى الارجوحة فأرجحته طويلا الى أن رمته أرضا ٠ اصابه ألم شديد من الاذى الذي لحق بساقه اليسرى عند الركبة ، حتى أن بقعة خضراء علقت ببنطاله الابيض في ذلك

المكان ولكنه بالطبع لم يبك ، بل وسرعان ما توارى الالم في مكان ما • في هذا الوقت كان الاب يرافق عبر الحديقة عجوزا مهيبا اصلع الرأس تماما ، فسأل يورتشكا :

ـ هل اصابـك اذى ؟

وبما ان العجوز ابتسم ايضا ، وقال ايضا شيئا ما ، لم يقبـل يورا اباه ولم يجبه ، بل جن فجأة ، فراح يزعق من الغبطة ويتصنع حركات ما عموما • لو كان لديه جرس كبير ، كمدينة بكاملها ، لراح يقرعه ، ولانه لا يملك جرسا تسلق شجرة الزيزفون السامقة المنتصبة قرب الشرفة تماما وشرع يتألق • ضحك الضيـوف علـى الارض وصرخت ماما ، ثم عزفت الموسيقى ووقف يورا امام فرقة العزف تماما مباعدا ما بين ساقيه داسا اصبعه في فمـه حسب عادة قديمة منسية منذ زمن بعيد • صفعته الاصوات جميعا ، جأرت ، رعدت ، دبت تحبو في ساقيه كالخدر وهزته من فكه • كان الضجيج عاليا بحيث لم يبق على الارض كلها الا فرقة العزف واختفى كل شـيء اخر • حتى ان الحلقات المعدنية تحللت من نهايات مواسير النفـخ في بعض الالات الموسيقية من شدة الزعيق : كم كان ممتعا صنع خوذة حربية من ماسورة •

وفجأة اصبح يورا حزينا • كانت الموسيقى ما تزال ترعد ولكنها الان في مكان بعيد ومن الخارج تماما ، اما في الداخل فعم الهـدوء وراح كل شيء يزداد هدوءا بالتدريج • تنهد يورا بعمق ونظر الى السماء ـ انها عالية تماما ـ وانطلق بخطى هادئة يتحاشى العيـد وجميع الحدود المبهمة والامكانات والافاق • وتبين انه تأخر عـن كل شيء : اراد ان يرى كيف يبدؤون بتوزيع الطاولات للعب الورق ، فكانت الطاولات جاهزة وقد راحوا يلعبون حولها بمظهر قديم جدا • لمس قطعة طباشير وممحاة قرب الأب فطرده هذا في الحال • وماذا ؟ سيان عنده • اراد ان يرى كيف يبدؤون الرقص ، وكان موقعنا ان هذا سيجري في القاعة ، اما هم فبدؤوا يرقصون لا في القاعة بـل تحت اشجار الزيزفون • اراد ان يرى كيف يبدؤون باشعال المصابيح فكانت المصابيح مشتعلة كلها ، حتى اخرها ، حتـى اخر اخرها اتقـدت بنفسها كالنجوم •

افضل من الجميع كانت ترقص ماما ٠

□

تسربل الليل بمنظر المصابيح الحمراء والخضراء والصفراء ٠ قبل ان تكون المصابيح لم يكن ليل ، اما الان فقد خيم في كل مكان واندس في جفاني الشجر ، وغمر الحديقة والبيت والسماء نفسها بظلمة باردة كالماء ٠ كان رائعا كما في احسن الحكايـات المزدانـة بالرسوم ٠ في احد الامكنة ضاع البيت تماما ، لم يبـق الا نافذة مربعة مصنوعة من الضوء الاحمر ٠ اما المدخنة فبادية فوق البيت ، وعليها شرارة تلمع ، تنظر الى الاسفل وتفكر بأمورها ٠ اية امور مختلفة عند المدخنة ؟

لم يبق من الناس في الحديقة سوى مجرد أصوات ٠ يظل المرء مرئيا ما دام يسير قرب المصابيح ، ما ان يأخذ بالابتعاد حتى يذوب كل شيء ، يذوب ، يذوب ، أما الصوت فيضحك في الاعلى ، يتكلم ، وجريئا يسبح في الظلام : بقعـة بيضاء ، فوقها ضـوء سيجارة صغير وصوت كبـير ٠

وهنا ابتدأ اكثر ما أفرح يورا ، ابتدأت الحكاية ٠ الناس والعيد والمصابيح ظلت على الارض ، اما هو فطار محلقا ، صار هواء ، استحال وذاب في الليل ، كذرة غبار ٠ السر العظيم لليل اصبـح سره ، وأراد القلب الصغير ما هو اكثر سرية وتعطشا في وحدانية الجسد للاندغامات اللاانسانية بين الحياة والموت ٠ كان هذا الجنون الثاني عند يورا في ذلك المساء : لقد اصبح لا مرئيا ٠ ومع انه كان يستطيع دخول المطبخ كالجميع ، تسلق عوضا عن ذلك سطح القبو الذي كانت نافذة المطبخ تضيئه وراح ينظر : كانوا يقلون شيئه هناك ، يكثرون من الحركة ولا يعرفون انه ينظر اليهم ، اما هـو فيرى كل شيء ٠ ثم ذهب وحدق في غرفة نوم البابا والماما : كانت غرفة النوم خاوية ، ولكن الاغطية كانت مكشوفة وكـان سراج يشتعل ٠ لقـد تحقق من ذلك ٠ ثم حـدق بسريره في غرفتـه : كان مكشوفا ايضا وينتظر ٠ عبر الغرفة التي كانوا يلعبون فيها

بالورق ، كلامرئي ، حابسا نفسه وهو يخطو برقة كأنه يطير في الهواء • في الحديقة فقط ، في الظلام ، تنفس كما ينبغي • ثم بدأ يتعقب الناس • دنا خلسة من اناس يتحدثون بحيث كان بوسعه ان يطالهم بيده ، ولم يعرفوا انه كان هنا ، فراحوا يتحدثون باطمئنان • وتعقب نينتشكا طويلا حتى درس حياتها كلها • كاد امره ان يكشف • حتى ان نينتشكا صرخت :

– يورتشكا ، هذا أنت ؟

ولكنه انبطح وراء جفنة وحبس أنفاسه • وهكذا انخدعت نينتشكا • وكانت على وشك أن تمسك به تماما • وبغية مزيد من السرية كف عن المشي وراح يزحف : أصبحت الممرات خطيرة الان • وهكذا مر وقت طويل طبقا لحسابه حينذاك ، عشر سنوات ، اما هو فتابع التخفي ، واستمر يزداد ابتعادا عن الناس • ابتعد حتى احس بخوف شديد : بينه وبين ذلك الماضي ، حين كان يتنزه كالجميع : تكشفت هوة سحيقة ، ربما لم يكن بالامكان تجاوزها • لكان ذهب الان الى الضوء ، ولكن كان ذلك رهيبا ، كان مستحيلا ، كان ضائعا الى الابد • اما الموسيقى فما زالت تعزف ، وقد نسيه الجميع حتى مايا • وحده • العشب الندي ينفث بردا ، نبات عنب الثعلب يخدش ، الظلمة لا تمزقها العينان ، وما من نهاية • يا الهي !

يائسا من الخلاص ، وبلا أي مخطط زحف يورا بخط مستقيم ، نحو ضوء لغزي يخفق ضعيفا • وتبين لحسن الطالع انه تلك العريشة اياها ، الملفعة بالكرمة حيث جلس الاب وماما اليوم • اما هو فلم يعرف ، اجل تلك هي العريشة بعينها • المصابيح حولها انطفأت ، واشتعل اثنان فقط : احدهما ضارب الى الخضرة ، اتقد ساطعا تماما ، والاخر ضارب الى الصفرة ، كان يخفق • ومع انه لم يكن هناك ريح ، فقد شرع يهتز من خفقانه ، وكل شيء حوله راح يهتز قليلا • أراد يورا ان ينهض ليدخل العريشة ويبدأ من هناك حياة جديدة بانتقال غير ملحوظ من الحياة القديمة ، واذا به يسمع

اصواتا في العريشة . كانت تتكلم أمه ويوري ميخائيلوفيتش غير الحقيقي ، الضابط . تجمد يوري ميخائيلوفيتش الحقيقي في موضعه وتجمد قلبه وتوقف تنفسه .

قالت ماما :

ـ دعني . لقد جننت . يمكن أن يدخلوا الى هنا .

قال يوري ميخائيلوفيتش :

ـ وأنت ؟

قالت ماما :

ـ عمري اليوم ستة وعشرون عاما . انني مسنة .

قال يوري ميخائيلوفيتش :

ـ هو لا يعرف شيئا ؟ حتى انه لا يخامره الشك . اسمعي ، هل يصافح الجميع بقوة هكذا ؟

قالت ماما :

ـ أي سؤال هذا ؟ الجميع بالطبع . كلا ، ليس الجميع .

قال يوري ميخائيلوفيتش :

ـ انني أشفق عليه .

قالت ماما :

ـ عليه ؟

وضحكت بغرابة . فهم يورتشكا أنهم يتحدثون عنه ، عن يورتشكا ما هذا ، يا الهي . ولماذا هي تضحك ؟

قال يوري ميخائيلوفيتش :

ـ أين أنت ذاهبة ؟ لن أتركك .

قالت ماما :

انك تهينني . دعني . كلا ، لن تجرؤ أن تقبلني . دعني .

صمتا . هنا نظر يورتشكا عبر الاوراق ورأى أن الضابط عانق ماما يقبلها . ثم تحدثا بأشياء أخرى ، ولكنه لم يفهم شيئا ، لم يسمع ، نسي على حين غرة ماذا تعني كل كلمة . كما ونسي ايضا الكلمات التي تعلمها من قبل وأحسن قولها . تذكر كلمة واحدة : ماما . ومن غير توقف راح يهمس بها عبر شفتين يابستين ، ولكن رنينها كان مرعبا ، أكثر رعبا من كل شيء . وكيلا يقولها بصراخ

يائس ضغط يورا على فمه بكلتا يديه واحدة فوق الاخرى ، وظل هكذا الى أن خرج الضابط وماما من العريشة ٠

حين دخل يورا الغرفة ، حيث كانوا يلعبون بالورق ، كان العجوز الاصلع المتعالي يقرع الاب لشيء ما ، يلوح بالطباشير ويحكي ويصرخ بأن سلوك الاب خطأ ، أنه لا يجوز التصرف هكذا ، أن الناس السيئين وحدهم يفعلون ذلك ، أن هذا سيء ، أن العجوز لن يلعب معه بعد الان ، وأشياء أخرى من هذا القبيل أيضا ٠ أما الاب فكان يبتسم ، يفتح ذراعيه ، يريد أن يقول شيئا ، لكن العجوز لم يعطه فرصة اذ يصرخ بصوت أعلى ٠ وكان العجوز صغيرا ، أما الاب فكان طويل القامة ، جميلا ، كبيرا ، وكانت بسمته حزينة ، كما غولليفر المشتاق لبلاده بناسها الجميلين ، طوال القامات ٠ بالطبع ، ينبغي اخفاء ما جرى في العريشة ، وينبغي أن أحبه ، ولشد ما أحبه أنا ٠ واندفع يورا الى العجوز الاصلع بزعيق متوحش وراح يكيل له اللكمات بكل ما أوتي من قوة :

ـ لا تتجرأ على ازعاجه ، لا تتجرأ على ازعاجه ٠٠٠

يا الهي ، أي شيء جرى ٠ أحدهم راح يضحك ، أحدهم راح يصرخ أيضا ٠ أخذه الاب على يديه بقوة وضمه الى صدره حتى الالم الشديد وصرخ أيضا :

ـ أين الام ؟ أين الام ؟

ثم جرفت يورا معها زوبعة من الدموع المجنونة والنشيج اليائس وخور قاتل ولكنه حتى في جنون الدموع راح ينظر الى الاب . هل تراه يحزر ، وعندما دخلت الام ازداد صراخه حدة ليزيل الشكوك ٠ ولكنه لم يذهب اليها ، بل تشبث بالاب بقوة اكبر : وهكذا اضطر الاب لنقله الى غرفته ٠ ولكنه بالذات لم يكن راغبا ، على ما يبدو ، أن يفترق عن يورا ٠ اذ ما أن خرج به من تلك الغرفة حيث كان الضيوف ، حتى راح يمطره بالقبلات الحارة ويعيد على مسمعه :

ـ آه ، أيها الغالي ٠ آه ، أيها الغالي ٠

وقال للام في الخلف :
ـ انظري اليـه ٠
قالت مـامـا :
ـ كل هذا من لعبكم ٠ تتخاصمون بشدة أرهبت الطفل ٠
ضحك الاب عاليا وقال :
ـ أجل ، انه يقرع بشدة ٠ أما هذا ٠ آه ، أيها الغالي ٠
في غرفة النوم طلب يورا أن يخلع ثيابه على يدي أبيه ٠
ـ فلتبق هنا ٠ قال يورا ٠

أصبح ماما بارعة ، وسرعان ما خلعت عنه ملابسه في حين ظل ممسكا بيد الاب ٠ طرد المربية ٠ ولكن بما أن الاب بدأ يغضب وكان في وسعه أن يعرف ما جرى في العريشة ، قرر يورا أن يتركه على مضض ٠ ولكنه قال بمكر وهو يقبله :

ـ لن يعود الى تقريعك ؟
انطلت الحيلة على بابا ٠ ضحك ، ومرة أخرى هو بالذات قبل يورا بحرارة وقال :
ـ كلا ، كلا ٠ واذا كان سيعود للتقريع سألقي به عبر السور ٠
قال يـورا :
ـ من فضلك ٠ انك قادر على ذلك ٠ فأنت قوي ٠
ـ لا بأس ٠ أما أنت فنم بعمق ٠ ستمكث ماما معك ٠
قالت ماما :
ـ سأبعث اليك بالمربية ٠ يجب علي أن أجهز العشاء ٠
صرخ الاب :
ـ هناك متسع من الوقت بعد ٠ يمكنك أن تمكثي مع الطفل قليلا ٠
ولكن ماما أصرت :
ـ الضيوف هناك ٠ ليس حسنا أن أتركهم ٠
ولكن الاب حدق بها بالحاح ، فهزت ماما كتفيها ووافقت :
ـ حسنا ، سأبقى ٠ ولكن احذر أن تخلط ماريا ايفانوفنا بين الخمـور ٠

هكذا كان يحدث دوما : اذا جلست ماما بالقرب من يورا وهو يغفو كانت تمسكه من يده حتى اخر لحظة • كان يحدث دوما هكذا • أما الان فجلست وكأنها وحدها تماما ولم يكن هناك أي ولد اسمه يورا يغفو ، شبكت يديها على ركبتيها وسرحت بنظرها • ولكي يشد اهتمامها تحرك يورا ولكن ماما قالت باختصار :
ـ نم •

واستمرت سارحة النظر • ولكن عندما ثقلت عينا يورا وبدأ يتهالك في النوم بكل حنينه ودموعه ، سجدت ماما فجأة على ركبتيها أمام السرير وشرعت تقبل يورا كثيرا كثيرا ، وبحرارة ، بحرارة • ولكن القبلات كانت مبللة ، حارة ومبللة •

ـ مالها مبللة ، هل تبكين ؟ سأل يورا •
ـ انني أبكي •
ـ لا لزوم للبكاء •
ـ حسنا لن أفعل • وافقت ماما طائعة •

ومرة أخرى قبلته كثيرا كثيرا ، وبحرارة بحرارة •
بحركة ثقيلة النعاس رفع يورا كلتا يديه ، عانق رقبة أمه، وبشدة ضغط خده الحار الى خدها المبلل والبارد • اذ أنها ماما على أية حال ، لا حيلة في ذلك • ولكن كم هو مؤلم ، كم هو مرير •

١٩١١

غيرمن ومارتا

كان كلا العاشقين قد تجاوز عتبة الخمسين من العمر : مارتا ايكونـن فـي الحاديـة والخمسـين ، وغيرمن ميتانن في السادسة والخمسين • لم يعرف احد من سكان ميتسيكيولي متى بدأ بينهما هذا الحب الغريب ، المضحك والحزين ، بل لم يحاول معرفة ذلك احد : فالناس هناك صامتون وانغلاقهـم طبيعـي كما هو طبيعي صمت الطحالب الخضراء وسكـون الثلـج والهـدوء العميق للسماء القريبـة •

كلاهما ترمل : مارتا وغيرمن • ولكن كلا منهما عاش حياتـه الزوجية جيدا كما هو مألوف بين الناس الصامتين الذين لا يصرخون ولا يشتكون • وكان عند مارتا ولد طويل نحيل تبدو عليه علائـم السل ، انه العامل فيللي • وعند الارمل غيرمن بنت عبرت الصبا وغير جميلة ، وجهها عريض ذو حنكين متباعدين وشرير ، عيناها عكرتان خضراوان ، شعرها الرمادي الصفرة كان يذكر بشعر اللعب الرخيصة ، اما تنورتها مجهولة اللون وكنزتها منحلة الالوان فقـد كانتا في حالة توحي بأنها تكره ثيابها اكثر من اي شيء اخـر في العالم • كانت تدعى تيلدا •

ولكن بعيدا ، وراء شريط الترمل الهادىء ، وراء ذلك الزمن الذي لم يكن قد رأى فيه النمو بعد فيللي ولا تيلدا ، كان العجوزان يتذكران شيئا غاليا على القلب ، شيئا ربما كان بداية حبهما غير العادي • صيفا ، ذات مرة ، بينما كان يسير كل منهما الى عمله ، التقيا في الغابة واجتازا سوية ثماني كيلومترات صامتين ، وعند الطريق الكبيرة ودعا بعضيهما وتابع كـل منهما طريقه • مارتا ، وهي اذ ذاك ما تزال فتاة ، كانت تستعد حينها لعرسها ، وغيرمن ، وهو آنئذ خطيب ، كان يستعد لعرسه • ذلك كل ما كان • على اية حال ، حين الوداع امسك غيرمن بيد الفتاة طويلا ، وابقت يدها هي الاخرى في يده طويلا • ولكنهما لم يهدما الصمت ولم ينظرا الى بعض • كان ذلك في الصيف ، عنـد الطريق الكبيرة ، علـى طرف الغابة • ورأى غيرمن قرب جذع متفسخ لشجرة مقطوعة جفنة فريز

كانت مثقلة بالثمار في ذلك الصيف • اما مارتا فراحت تنصت لرنين اجراس بقرة وعجل في مكان ما من الغابة ، الا انهما لم ينبسا ببنت شفة ولم يجرحا الصمت •

وبعد الترمل راحا يلتقيان اكثر فاكثر ، انما ليس لدرجة تلفت النظر ، اذ كانت تمر اسابيع دون لقاء احيانا • بيتاهما المزنـــران بطحالب اسودت من الثلج وامطار الخريف ، كانا بجوار بعض ، بين حقولهما المتداخلة يفصل سور من عيدان سوداء متقاطعة ، وفي أحد الامكان تكسر القسم الاعلى منها وتشكلت كوة في السور استغلاها لعلاقات الجوار العملية • وكانت قطعة ارض غيرمن الضيقة مغطاة بالاعشاب خالية من الجفان والاشجار ، اما قطعة ارض مارتا فكان ابنها قد زرعها بالشوفان كما كان لها بضعة اشجار عوجاء يتزودون باغصانها للشتاء • وحولهم ، تماما حتى تخوم الغابة السوداء على الهضبة ، كانت توجد ، وحيدة ، بيوت كهذه واسوار كتلك ، عاش فيها اناس ايضا من آل ايكونن وميتانن : لان ميتسكيولي كانت تكاد تخلو من اية اسر اخرى تماما • ربما كانت تربطهم علاقات قربى بعيدة كتلك التي تربط اشجار الغابة المولودة من بذرة واحـدة • لم يتسرع غيرمن ومارتا بحبهما فنما ببطء ككل الاعشاب التي تنمو في الربيع والصيف سريعا ، وتتوقف في الشتاء تماما ، من الممكن جدا انهما لم يلاحظا مرور الزمن او انهما لم يريا له نهاية • وعندما قررا الزواج وقفت امامهما عثرة : اذ حسب النظام القاسي للبـلاد كان يمكن للعجائز بالغي الخمسين ان يتزوجوا في حالة موافقة اولادهم فقط • انهما يعرفان هذا القانون سابقا ، ولكن ربما لم يكن بودهما التفكير به ، اما الان فقد اضطرا •

حدث ذلك في الربيع ، في ايار ، عندما يسير كل حب بخطـى سريعة ، ورغم ان اليوم كان صافيا ودافئا فقد جلسا في العزبة عند مارتا على مقعد خشبي محاذاة النافذة المغلقة التي حجبت وراءها مرجا اصفر بابهام وقد افترشته زهور ذهبية متواضعة • واطرق كلاهما •

– فيللي لن يسمح • قالت مارتا •

ـ بل سيسمح ، وابنتي تيلدا سوف تسمح ، كيف لها الا تسمح ؟ قال غيرمن ،

وكان ذا سالفين كثين احمرين ووجهه احمر مجعد ، ومع السنين صار سطحيا ومعتدا بنفسه ،

ـ كلا لن يسمح ، قالت مارتا ،

ولم يسمح فيللي بالفعل ، وبعد اسبوع ، استمع الى طلب امه مساء عند تلك النافذة وصمت طويلا مقلصا شفتيه الرقيقتين الشاحبتين ، ربما انذهل ولكنه لم يظهر ذلك ، وفي عينيه الصغيرتين الزرقاوين كقطعتي زجاج كانت تتعذر قراءة التعجب او الشفقة او الحقد ، وتابع صمته ثم قال بحزم واختصار :

ـ لا يجوز ؟

ـ لماذا لا يجوز ؟ ولئن كان جائزا ؟ فلتفكر يا فيللي ، سأنتظر ، وبعد ان فكر اجاب بحزم واختصار ايضا :

ـ لا يجوز ،

ثم جلسا ساعة قرب بعضهما على المقعد وصمتا ، وفي المساء نفسه تلقى غيرمن الجواب نفسه من ابنته تيلدا ، ولكن الجواب الشرير كان اسرع ، ولم يستسلم غيرمن فورا ، بل صرخ وشتم ابنتـه :

ـ يا للشيطان !

وابيض انفها واحمرت وجنتاها وكان واضحا انها لا تكره فقط ثوبها بل وشعرها الطيني وكل الوجود ، بعد ساعة التقى غيرمن ومارتا عند السور ، لم يحددا موعدا بل حصل ذلك مصادفة بحيث سار كل منهما الى السور ، وقالت مارتا :

ـ فيللي لم يوافق ، وتيلدا أيضا ؟

ـ ايضا ، يا للشيطان !

وبينما كانا غارقين في التفكير كان فيللي وتيلدا ينظران اليهما ، كل من نافذته وخلف الزجاج الداكن كانت وجوههما كالبقع

الرمادية الجامدة • اقبل الليل ، غير ان النور لم ينحسر بعد ولم يكن محتملا بأنه سينحسر ابدا • لكم كان شاحبا وجامدا •

عاليا كانت السماء الخالية من النجوم معكرة الزرقة ، وفي الغرب ، فوق الشريط البرتقالي انتشرت السحب الجامدة كتلا زرقاء ثقيلة محبوكة في احد الاطراف بعقد كبيرة ناعمة • ولكن حتى ولو تحركت هذه الغيوم وحجبت صفحة السماء لما انحسر النور برغم ذلك ، لما اصبح سطح بيت السيد البعيد بهذه الحمرة ابدا •

كان الجو دافئا ، وتحت المنحدر الشاقولي تعمم النهر بالضباب الليلي ، ووراء النهر في غابة البتولا العطرة ردد طائر الوقواق صداحه ، انه الربيع ، في ايار ، عندما تتسع خطى كل حب •

ـ سأسافر غدا الى فيبورغ • سوف نرى •
ـ سافر • وافقت مارتا •

بعد اسبوعين سافر غيرمن الى فيبورغ • انها اول رحلة بعيدة له من ميتسيكيولي ، علما بأن المسافة بالقطار ثلاث ساعات ، كما انها المرة الاولى التي يرى فيها المدينة • آل ـ ميتانن و ـ ايكونن ـ كالاشجار التي في غابتهم ، لا يسافرون الى اي مكان الا اذا جن احد منهم ، اذ ذاك يرحل في الحال الى امريكا ويضيع الى الابد كشجرة صنوبر بترت من الجذور •

ولكن حتى في فيبورغ لم يحصل غيرمن على كلمة سارة ، فشرب كحولا حتى الثمالة ، صرف نقوده على السكر وبددها ثم عاد الى بيته بعد ايام خمسة مشيا على قدميه • بعد ذلك بوقت قصير سافر غيرمن ومارتا سوية الى كنيسة المنطقة التي تبعد عنهم مسافة عشرين كيلومترا • وكان يعرف كل من نظر اليهما لماذا هما مسافران كما عرف كل من رآهما عائدين ايضا بماذا عادا • غيرا انه كان يستحيل ان تقرأ في العيون الراصدة، ازرقها ورماديتها، لا التعجب ولا الشفقة ولا السخرية • لقد سافرا على حصان غريب استعاره غيرمن من عند جاره ، ولدى العودة كان يسوقه بلا رحمة ويصرخ بـه :

ـ يا للشيطان ٠

وحين وجدا ان القانون اقوى من حبهما قررا رشوة ولديهما : كان في حوذة مارتا اربعمائة مارك خلفها لها زوجها الراحل ، اما غيرمن فكان قد احتفظ بثمانمائة مارك من ثمن قطعة ارض باعها ذات يوم ، اصبح المبلغ الفا ومائتي مارك ٠ بيد ان العنيدة تيلدا لم يغرها المال ، اما فيللي فأجاب بنفس ذلك المنظر اللامبالي وباختصار ايضا :

ـ لا يجوز ٠

في الواقع كان فيللي وتيلدا بحاجة ماسة للمال لانهما كانا حينها قد احبا بعضهما تحت تأثير الربيع والظروف وقررا الزواج : لقد كانا شابين وكان ذلك حقهما الذي لا يرفضه احد ٠ وفوق ذلك فقد دفعهما للزواج ايضا وضعهما الاقتصادي : كل منهما بمفرده يملك قطعة ارض صغيرة اما كلاهما فسيمتلكان حقلا كبيرا ، قسم منه لزراعة البرسيم وقسم اخر للشوفان وبضعة اشجار عوجاء للتحطيب ٠

لم تقل مارتا شيئا اذ علمت بعزمها على الزواج ، اما غيرمن فتخاصم مع ابنته وزار ، صامتا ، جيرانه ، الذي كان يأمل التماس الشفقة لديهم ، الا انه لم يجد شفقة بل كانوا صامتين ، ومر الصيف الذي يعبر الحب معه ٠ وبعد حين قصير استكان غيرمن ٠ والان في الاماسي الباكرة ، في برد الليل الطويل كان يقف العشيقان ـ فيللي وتيلدا ـ صامتين عند السور يجيلان الطرف هنا وهناك ٠ ووراء زجاج النافذة المعتم لاحت جامدة بقعة وجه مارتا ٠ في البداية كانا اثنين : اذ ان غيرمن كان يحدق ايضا بالعشيقين الى ان مل ذلك ٠

وعند دنو الشتاء بدا كل شيء هكذا : لكأن غيرمن ومارتا لم يفكرا يوما بالزواج ، اما فيللي وتيلدا فكأنهما كانا عروسين ابدا ٠ لقد قصدا المعرض في فيبورغ سوية لشراء الثياب وفرش لفيللي اذ ان غيرمن اعطى ابنته نقوده وكذلك فعلت مارتا بماركاتها

الاربعمائة• وعرف الجميع لماذا سافرا ثم عرفوا بعدئذ الفرس الجديدة لفيللي وادخلوها صامتين قائمة الديدان الحية التي تقطن ميتسيكيولي والتي كانت في حساب سلطات الكنيسة وعند الله •

قبيل عيد الميلاد تماما اختفت مارتا • صمت وانتظرها ابنها فيللي يومين دون ان ينام في الليلة الطويلة الثانية • كان يخرج بثياب النوم الى الباب وينصت ، لكن كل شيء كان صامتا وكان الثلج ابيض حتى في الظلام ، اما البيوت والاسوار فكانت سوداء ، بيد ان السماء الواقعة فوق السطح الابيض المستوى لبيت تيلدا كانت اكثر الاشياء سوادا • في اليوم الثالث ، عند بزوغ الفجر ، اصطحب معه صياد السمك اييكا ، ومعه شصه وذهب الاثنان للبحث عن مارتا المفقودة • وقادتهما اثار الخطى المستقيمة الواضحة على الثلج الضحل الى ذلك السور ، الى الكوة نفسها التي تحدث عبر الجدران ، ثم شقت الاثار حقلا محروقا منذ الخريف ، متجمدا على الثلج ، وهنا كانت الاثار مضطربة اذ تنقلت القدم فوق الكتل ، ثم امتدت اثار عبر السفح المنحدر ، خلال الثلج البكر ، وقادتهما الى النهر • وهنا اصبح الامر جليا •

كان الثلج على الجليد قليلا جدا ، وسارت مارتا باستقامة واتزان كأنها تتبع خيطا ، دون ان تتوقف او تلتفت مرة ، وعلى جانبي خط الاثار الضيق ، بصمت وهدوء ، سار فيللي وايريكا ، وصياد السمك ، ومعه شصه • وعند الثغرة ، حيث تجمد الثلج بفعل الماء الجاري ، توقفا ودخنا محدقين في الفجوة السوداء الملفعة بقشرة جليد رقيقة ، ولكن النظر الثاقب عند ايريكا استشف إثارا وراء الثغرة فسارا متقدمين • خلف منعطف في الغابة امتد شريط اسود قاطعا النهر ، هناك انساب تيار الماء سريعا بحيث لا يتجمد حتى اثناء البرد الشديد • وامام التيار السريع كان يوجد مكان عميق قادت اليه اثار مستقيمة ضيقة كالخيط • باتجاه المجرى المكشوف كان الجليد اكثر رقة ويعلوه ثلج اقل ، وامام سواد الماء العميق تماما اختفت الاثار مع الجليد المحطم ، جرف التيار بعض قطع الجليد وبعضها الاخر تجمع والتصق بالجهة الاخرى ، بينما استحالت قطعة اخرى الى ضلع رقيق تمتصه الماء •

تحسس الخبير ايريكا مارتا بشصـه حيث الماء السريع ، في مكان ضحل جرها التيار اليه · ثم نقلوها الى البيت على الفرس الجديدة وخلال ايام ستة قبل دفنها اشتعل في بيتها وراء الزجاج المغطى بالجليد ضوء خافت طوال الليل · الا انه كان الضوء الوحيد في ميتسيكيولي حيث يطفئون النور في جميع البيوت السوداء في الثامنة مساء ، وهذا ما اعطى للضوء صفة حية وغنية بالمعاني بصورة خارقة : كأنه الوحيد الذي يتكلم عندما يصمت كل شيء ·

ولكن اعجب شيء هو ان مارتا انتحـرت غرقـا في الشتاء ، عندما يخمد كل حـب ·

تصميم ورسم الغلاف : اللباد ونبيل تاج . (إنجاز المركز الگرافيكي العربي بالقاهرة)

الثمن ١٠ ليرات لبنانية أو ما يعادلها

دار ابن رشد للطباعة والنشر
بيروت - لبنان - كورنيش المزرعة - بناية موسى - ب ٣٠٠٣١١